

الدكتور يوسف القرضاوي

ثقافة الداعية

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة العاشرة

١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد . . فإن الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ هى مهمة الرسل والأنبياء الذين هم خيرة الله من عباده ، وسفراؤه إلى خلقه ، وهى مهمة خلفاء الرسل وورثتهم من العلماء العاملين ، والربانيين الصادقين ـ وهى أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله تعالى ، لأن ثمرتها هدايه الناس إلى الحق ، وتحبيبهم فى الخير ، وتنفيرهم من الباطل والشر ، وإحراجهم من الظلمات إلى النور . « **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين** » [1] .

والدعوة إلى الله هى الدعوة إلى دينه ، واتباع هداه ، وتحكيم منهجه فى الأرض ، وإفراده ـ تعالى ـ بالعبادة والاستعانة والطاعة ، والبراءة من كل الطواغيت التى تطاع من دون الله ، وإحقاق ما أحق الله ، وإبطال ما أبطل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله وبعبارة موجزة : الدعوة إلى الاسلام خالصاً متكاملاً ، غير مشوب ولا مجزأ . ومثل هذه الدعوة إلى هذه المعانى ليست بالأمر الهين الذى يقابل بالإغضاء والسكوت ، أو الموافقة والقبول ، وكيف تقبل هده الدعوة العقول الجامدة أو القلوب المريضة ، أو القوى المتسلطة ، أو الفئات التى أضلها الهوى أو أغرقها حب الدنيا ؟ لهذا كان لابد لهذه الدعوة العظيمة الشاملة من دعاة أقوياء ، يتناسبون مع عظمتها وشمولها ، قادرين على أن يمدوا أشعه ضيائها فى أنفس الناس وعقولهم وضمائرهم بعد أن

---

(١) فصلت . ٣٣

تشرق بها جوانحهم هم ، وتستضيء بها حياتهم . إن هذا الداعية المنشود هو القوة المحركة « الموتور » أو « الدينامو » لعملية الدعوة وحركة سيرها .

إن المشتغلين بالتربية والتعليم يقولون بعد دراسة وخبرة ومعاناة :

إن المعلم هو العمود الفقرى فى عملية التربية ، وهو الذى ينفخ فيها الروح ، ويجرى فى عروقها دم الحياة مع أن فى مجال التعليم والتربية عوامل شتى ، ومؤثرات أخرى كثيرة ، من المنهج إلى الكتاب ، إلى الإدارة ، إلى الجو المدرسى ، إلى التوجيه أو التفتيش ، وكلها تشارك فى التوجيه والتأثير بنسب متفاوتة . ولكن يظل المعلم هو العصب الحى للتعليم .

فماذا يقول المشتغلون بالدعوة والإرشاد فى شأن الداعية ومبلغ أثره ، وهو العامل الفذ ، الذى ينفرد بالتأثير والتوجيه فى عملية الدعوة ؟ ؟ إذ لا يشاركه فى ذلك ـ عادة ـ منهج موضوع ، ولا كتاب مقرر ، ولا جو ولا إدارة ، ولا توجيه .

فالداعية وحده هو ـ فى غالب الأمر ـ الإدارة والتوجيه والمنهج والكتاب والمعلم وعليه وحده يقع عبء هذا كله .

وهذا يجعل العناية بتكوين الدعاة ، وإعدادهم الإعداد المتكامل ، أمراً بالغ الأهمية ، وإلا أصيبت كل مشروعات الدعوة بالخيبة والإخفاق ، فى الداخل والخارج ، لأن شرطها الأول لم يتحقق وهو الداعية المهيأ لحمل الرسالة .

ومن هنا كان لابد للداعية الذى يريد ـ أو نريد له ـ أن ينتصر فى معركته على الجهل والهوى والتسلط والفساد ، أن يتسلح بأسلحة شتى لازمة له فى الدفاع والهجوم .

وأول هذه الأسلحة ـ ولا ريب ـ سلاح الإيمان ـ فبدونه يبطل كل سلاح وتفشل كل ذخيرة ، وليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

وثانى هذه الأسلحة هو : الأخلاق ، وهى من لوازم الإيمان الحق وثماره ، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً .

وقد وصف الله سيد الدعاة من خلقه فقال : « **وإنك لعلى خلق عظيم** »[٢] وخاطبه بقوله : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** »[٣] .

---

(٢) القلم : ٤ (٣) آل عمـران . ١٥٩

وثالث هذه الأسلحة هو : العلم أو الثقافة ، فهذه هي العدة الفكرية للداعية بجوار العدة الروحية والأخلاقية . والدعوة عطاء وإنفاق ، ومن لم يكن عنده علم ولا ثقافة ، كيف يعطى غيره ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ومن لم يملك النصاب كيف يزكى ؟ .

وحديثنا فى هذا البحث عن هذا الجانب خاصة : الجانب الفكرى أو الثقافى المطلوب للداعية المسلم . كيف يعد الداعية نفسه . أو كيف نعده نحن الإعداد الثقافى المنشود ؟ وبعبارة أخرى : ما الثقافة اللازمة للداعية إن أردنا أن ننشىء مدرسة للدعاة ، أو كلية للدعوة ، أو أراد أحدنا أن يكون من نفسه داعية قادراً على التوجيه والتأثير ؟

إن الجواب عن هذا السؤال هو موضوع هذا البحث الذى أعددته فى الأصل للمؤتمر العالمى الأول ، لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ، الذى دعت إليه الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة فى صفر ١٣٩٧هـ . وقد كنت أردته مختصراً فطال بالرغم منى ، ولعل فى ذلك الخير ، فالموضوع تتطلبه الحاجة اليوم ، وبخاصة أن أكثر من كلية للدعوة أنشئت وتنشأ فى عالمنا الاسلامى .

ولقد تبين لى أن الداعية فى حاجة إلى مجموعة من الثقافات هى :

١ ـ الثقافة الإسلامية . ٢ ـ الثقافة التاريخية .
٣ ـ الثقافة الأدبية واللغوية . ٤ ـ الثقافة الإنسانية .
٥ ـ الثقافة العلمية . ٦ ـ الثقافة الواقعية .

والمطلوب من الداعية الناجح أن يتمثل هذه الثقافات ويهضمها ، ويكون منها مزيجاً جديداً طيباً نافعاً أشبه شيء بالنحلة التى تأكل من كل الثمرات ، سالكة سبل ربها ذللاً ، لتخرج منها بعد ذلك شراباً مختلفا ألوانه ، فيه شفاء للناس ، كما أن فيه آية لقوم يتفكرون .

وسأتحدث عن كل واحدة من هذه الثقافات الست بما يفتح الله به ، ويتسع له المقام . وبالله التوفيـق .

الدوحة ١٨/١٢/١٣٩٦هـ .

د . يوسف القرضاوى

* * *

الثقافة الإسلامية

إن أول ما يلزم الداعية المسلم من عدة فكرية ، أن يتسلح بثقافة إسلامية ثابتة الأصول ، باسقة الفروع ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

ونعنى بالثقافة الإسلامية : الثقافة التى محورها الإسلام : مصادره وأصوله وعلومه المتعلقة به ، المنبثقة عنه . وهذا أمر منطقى ، فإن الداعية الذى يدعو إلى الاسلام ، لابد أن يعرف : ما الاسلام الذى يدعو الناس اليه ؟ . . ولابد أن تكون هذه المعرفة معرفة يقينية عميقة ، لا سطحية مضطربة . ولهذا كان لابد أن يستمد هذه المعرفة عن الإسلام من مصادره الأصلية ومن ينابيعه المصفاة ، بعيداً عن تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

وبهذا يكون الداعية على « **بينة من ربه** »[1] وتكون دعوته « **على بصيرة** » كما أراد الله لرسوله ﷺ ، ومن تبعه واهتدى بهداه « **قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين** »[2] .

لابد للداعية إذن أن يقف على أرض صلبة ، من دراسة العلوم الإسلامية دراسة وعى وهضم وتذوق . ثم يخرج منها شراباً مختلفاً ألوانه ، فيه شفاء للناس .

* * *

---

(١) محمد : ١٤ (٢) يوسف : ١٠٨

القــرآن الكــريم وتفسيره

القرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام ـ وبالتالى للثقافة الاسلامية . كل تعاليم الإسلام يجب أن ترجع فى أصولها إلى القرآن : العقائد والمفاهيم والقيم والموازين ، والعبادات والشعائر والأخلاق والآداب ، والقوانين والشرائع . كل هذه قد وضع القرآن أسسها ، وأرسى دعائمها ، وجاءت السنة فبينت وفصلت ، وأقامت عليها بنيانا شامخاً لا تنال منه الليالى والأيام .

وقد حوى القرآن من حقائق الغيب ، وحقائق النفس ، وحقائق الحياة ، وحقائق الاجتماع الإنسانى ، وبين من سنن الله تعالى ، ومن آياته فى الأنفس والآفاق ما لا يستغنى بشر عن معرفته ، والاهتداء به

وقد صاغ ذلك كله فى أسلوب معجز هو « نور من الكلام أو كلام من النور » لا يوصف إلا بأنه « **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** »(١) .

وصفه منزله بأنه « نور » والنور من طبيعته أن يضيىء ويهدى « **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** »(٢) .

كما وصفه بأنه روح ، والروح من طبيعته أن يحرك ويُحيى « **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا** »(٣)

ولهذا كان شأن المؤمنين المهتدين بالقرآن أن يوصفوا بالحياة وبالنورانيه معاً . انتصروا على الموت وعلى الظلام جميعاً . يقول تعالى : « **أوَ مَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** »(٤) .

● **الداعية مع القرآن :**

وينبغى للداعية أن يحفظ من القرآن الكريم قدر ما يستطيع ، بل يحسن بالداعية أن يحفظ القرآن كله ويستظهره ، متى تيسرت له أسباب ذلك ، ليكون أقدر على استحضاره والاستشهاد به فى كل مناسبة ممكنة ، فالقرآن ذخيرة لا تنفد ، ومعين لا ينضب لإمداد الدعاة .

---

(١) هـود : ١
(٢) النساء . ١٧٤
(٣) الشـورى : ٥٢
(٤) الأنعام : ١٢٢

ومن اللازم - للحافظ وعير الحافظ - دوام التلاوة لكتاب الله بخشوع وتأمل وتدبر ، تنفتح معه أقفال القلوب ، وتنشرح الصدور لما جاء به من الحق ، وتقتبس العقول منه أنوار المعرفة ، وتجنى ثمار الحقائق .

ودوام هذه التلاوة مع التفهم والتدبر ، يجعل الداعية متمكناً من استحضار الشواهد القرآنية ، التي يريد أن يؤيد بها فكرته ، ويمنحها نسبة إلٰهية .

بل إن مما يلزم الداعية الموفق أن يحسن تلاوة القرآن بإتقان وترتيل كما أمر الله ، وأن يدرس من أحكام التجويد ما يصحح به قراءته ، حتى يتلوه بخشوع وتأثر وحزن ، فإن وجد بكاء بكى ، وإلا تباكى .

***

● **خصائص القرآن :**

وينبغى لمن يريد أن يفهم القرآن ، أن يقرأه وهو يعى خصائصه ومميزاته . ويدركها بعقله وقلبه .

١ - كلام الله :

أولى هذه الخصائص : أنه كلام الله خالصاً ، غير مشوب بأوهام البشر ، ولا بأهواء البشر ، ولا بتحريفات البشر ، وانحرافات البشر فهو كله من الله ، مائة فى المائة ، من ألفه إلى يائه . ليس لجبريل منه إلا النقل ولا لمحمد منه إلا التلقى والحفظ ، ثم التبليغ والبيان « **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** »[٥] .

ومعنى هذا أنه يحمل فى ثناياه علم الألوهية وحكمتها ورحمتها وقدرتها . الألوهية المتصفة بكل كمال ، المنزهة عن كل نقص . « **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيماً** »[٦] .

ولا غرو أن تتصف أخبار هذا الكتاب بالصدق الكامل ، وأحكامه بالعدل المطلق « **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم** »[٧] .

وكل ما فى القرآن من أخبار ومواعظ ، وأوامر ونواه ، وتوجيهات وتشريعات يتجلى فيه الحق كله ، والخير كله ، والجمال كله ، والعدل كله ، والحكمة كلها والرحمة كلها ، والمصلحة كلها ، لأنها كلها صادرة « **من لدن حكيم خبير** »[٨]

---

(٥) الشعراء ١٩٢ - ١٩٥
(٦) الفرقان . ٦
(٧) الأنعام : ١١٥
(٨) هود ١

« **من لدن حكيم عليم** »[٩] « **تنزيل من حكيم حميد** »[١٠] « **تنزيل من الرحمن الرحيم** »[١١] « **تنزيل من رب العالمين** »[١٢] .

ومن هنا يختم القرآن كثيراً من آياته التشريعية بمثل هذه المواصل « **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** »[١٣] « **والله بكل شيء عليم** »[١٤] « **إن الله كان عليما حكيماً** »[١٥] « **والله عزيز حكيم** »[١٦] « **إن الله عليم حكيم** »[١٧] .

ومن ثم لا يجوز لمخلوق ـ أياً كان شأنه ـ أن يفرض نفسه على كلام الخالق : يفرض جهله مدعياً العلم ، أو يفرص هواه زاعماً التحرر ، أو يفرص نقصه متظاهراً بالكمال ، فكلمات الله هى العليا ، وهى فوق الجهالات والأهواء والأوهام .

٢ ـ التيسير :

والخصيصة الثانية للقرآن هى التيسير ، فهو كتاب يسّره منزله سبحانه . يسر تلاوته ، ويسر فهمه ويسر العمل به لمن أراد ، لا يكلف الإنسان شططاً ، ولا يرهقه من أمره عسراً . قال تعالى : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** »[١٨] « **فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون** »[١٩] ويستطيع كل إنسان سليم الفطرة ـ يقرأ القرآن أو يسمعه ـ أن يفهم منه ، ويتأثر به ويستقى من منهله ، بقدر ما يتسع واديه « **فسالت أودية بقدرها** »[٢٠] .

ولهذا كان من أوصاف هذا الكتاب : الإبانة والوضوح .. فهو كتاب « مبين » بل هو « نور مبين » قال تعالى : « **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** »[٢١] « **وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** »[٢٢] .

والنور واضح بين فى نفسه ، مبين موضح لغيره ، فكل بصير لابد أن يرى النور ، ولا يستطيع أن يرى شيئاً بغير النور .

وكل هذا يوجب على الداعية أن يعرض القرآن سهلاً ميسراً كما أنزله الله ،

---

(٩) النمل : ٦
(١٠) فصلت : ٤٢
(١١) فصلت : ٢
(١٢) الحاقة : ٤٣
(١٣) البقرة : ٢١٦
(١٤) البقرة : ٢٨٢
(١٥) النساء . ١١
(١٦) المائدة : ٣٨
(١٧) التوبة : ٢٨
(١٨) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢
(١٩) الدخان : ٥٨
(٢٠) الرعد : ١٧
(٢١) المائدة : ١٥
(٢٢) النساء · ١٧٤

ولا يضعه فى إطار من الألغاز والمعميات والتكلفات التى تخرجه عن طبيعته الميَّسرة ، والميِّسرة كذلك .

كما ينبغى له ألا يكثر من القيل والقال فى بيان معانى القرآن ، وألا يَغْرق - ويُغرق الناس معه - فى أقاويل يضرب بعضها بعضاً ، أو يكرر بعضها بعضاً مع اختلاف الألفاظ ، دون أن يكون وراءها ثمرة علمية ، أو يخرج منها برأى ناضج محدد .

٣ - الإعجاز :

ومن خصائص القرآن : أنه كتاب معجز ، أمر الله رسوله أن يتحدى به المشركين من العرب أن يأتوا بحديث مثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة مثله ، فغلبوا وانقطعوا ، وسجل القرآن عليهم ذلك فى جلاء وصراحة « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** »[٢٣] .

فالقرآن - بهذا - هو آية محمد العظمى ، ومعجزته الخالدة .

كانت آيات الأنبياء السابقين مادية حسية وقتية يؤمن بها من عاصرها وشاهدها دون من نأى بهم المكان ، أو تأخر بهم الزمان .

أما القرآن فكان آية عقلية أدبية باقية على مر الدهر . وفى هذا جاء حديث البخارى عنه - ﷺ - « ما من الأنبياء الا أوتى ما على مثله آمن البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » والإعجاز القرآنى له أوجه أو جوانب عديدة يتجلى فيها . وأهم هذه الأوجه أو الجوانب التى تهم الداعية خاصة ما يلى :

(أ) **الإعجاز البيانى** : وهو ما يتعلق ببلاغة القرآن ونظمه وأسلوبه وعباراته وألفاظه ، وهو الذى وجه إليه القدامى هممهم وأوسعوا القول فيه ، وأسهم فى ذلك علماء الكلام مثل الباقلانى ، وعلماء البلاغة واللغة مثل عبد القاهر الجرجانى ، وعلماء التفسير مثل الطبرى . وغيرهم .

وقام المحْدَثون فيه بجهد مشكور مثل الرافعى فى « إعجاز القرآن » وسيد قطب فى « التصوير الفنى فى القرآن » و « مشاهد القيامة فى القرآن » والدكتور بدوى فى « بلاغة القرآن » والدكتور دراز فى « النبأ العظيم : نظرات جديدة فى

---

(٢٣) الاسـراء : ٨٨

القرآن » ومحمد المبارك فى « صور أدبية من القرآن » وبنت الشاطىء فى « التفسير البيانى للقرآن » وغيرهم .

(ب) **الإعجاز الموضوعى** : ونعنى به : أن القرآن قد جمع من صنوف الهداية والحكمة والموعظة الحسنة ، ومن وجوه الاصلاح التوجيهى والتربوى والتشريعى ، ما يسعد البشر أفرادا وأسراً وجماعات ودولا ، فى دينهم ودنياهم ، لو أنهم اهتدوا به واتبعوه ، وما يعجز حكماء الأمم ومفكرو الشرق والغرب أن يأتوا بمثله فى شموله وتوازنه وعمقه . هذا مع أن الذى أتى به رجل أمى نشأ فى أمة أمية لا تكتب ولا تحسب .

ولم يهتم الأولون بالتأليف فى هذا اللون من ألوان الإعجاز ، وإن أشاروا إليه ، ونبهوا عليه ، ضمن بحوثهم عن الإعجاز .

وفى عصرنا بدأت العقول تنجه إلى تجديد التحدى بالقرآن من ناحية موضوعه ومحتواه ، وألف فى ذلك العلامة السيد رشيد رضا كتابه « الوحى المحمدى » وكتب العلامة الشيخ محمد أبو زهرة عدة مقالات عنوانها « شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله » .

وألف كثيرون فى موضوعات قرآنية شتى ، مثل « القرآن والقتال » و « القرآن والمرأة » للشيخ شلتوت ، و « الإنسان فى القرآن الكريم » و « المرأة فى القرآن الكريم » للعقاد . « التربية فى القرآن » لمحمد شديد . . . « دستور الأخلاق فى القرآن » للدكتور دراز ، « الدستور القرآنى » لمحمد عزت دروزة . . وغيرها وغيرها .

(جـ) **الإعجاز العلمى** : ونعنى به ما يتعلق بإشارة القرآن فى كثير من آياته إلى حقائق علمية كشف عنها العلم الحديث ووافقت أحدث ما انتهى اليه الكشف العلمى فى هذا العصر . مع أنها كانت مجهولة فى عصر النبوة ، وما بعده لقرون عديدة .

ومثل هذا لا يتصور أن يصدر من بشر ، لا يدرى ماذا يكسب غداً ، فضلا عما يكسب غيره ، وما تكتشفه البشرية بعد قرون وقرون . إنما يتصور أن يصدر هذا من خالق الكون ومدبره ، فهو القادر على أن يودع كتابه من أسرار الوجود ما لا يعلمه غيره ، وأن يصوغ ذلك فى أسلوب يتسع لإدراك السابقين ، وفهم اللاحقين . وقد عنى كثيرون من المعاصرين بهذا اللون من الإعجاز ، وبخاصة المتخصصون فى العلوم الحديثة ، مثل الأساندة : د. محمد أحمد الغمراوى .

د. محمد جمال الدين الفندى ، عبد الرزاق نوفل ، وقبلهم الشيخ طنطاوى جوهرى ، وغلا بعضهم فى ذلك إلى حد التكليف والمجافاة للفظ القرآن وسياقه ، وعارضهم آخرون على طول الخط ، وتوسط فريق ثالث . وخير الأمور الوسط .

وسنعود إلى ذلك فيما بعد .

٤ ـ الخلود :

ومن خصائص القرآن : أنه كتاب الخلود ـ ليس كتاب جيل ، ولا كتاب عصر ، ولا كتاب أجيال أو أعصار محدودة ، بل هو الكتاب الخاتم للرسالة الخاتمة ، ولهذا تكفل الله بحفظه فقال : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** »[٢٤] « **وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** »[٢٥] .

ومن دلائل ذلك أن أربعة عشر قرنا من الزمن مرت على نزول هذا القرآن ولم يزل كما أنزله الله ، وكما بلغه محمد ﷺ ، وكما تلقاه أصحابه ، ومن بعدهم جيلا إثر جيل ، محفوظا فى الصدور ، متلواً بالألسنة ، مكتوباً فى المصاحف ، يستظهره عشرات الألوف من أبناء المسلمين ، حتى الصبيان منهم ، بل حتى الأعاجم الذين لا يعرفون لغته .

وعلى الداعية أن يقرأ القرآن بهذه الروح ، وهذه الفكرة : إنه كتاب الزمن كله ، فلا ينبغى أن يحمل على ثقافة عصر خاص ، أو أفكار جيل معين ، فإن الثقافات تتطور ، والأفكار تتغير ، والعصور والأجيال تذهب ، ويبقى كتاب الله كما أنزله الله .

٥ ـ الشمول :

ومن خصائص القرآن كذلك : الشمول ، فكما أنه كتاب الزمن كله هو كتاب الدين كله : جمع أصول الهداية الإلهية ، والتوجيه الربانى ، فى العقائد والشعائر والآداب والأخلاق ، كما جمع أصول التشريع الإلهى فى العبادات والمعاملات وشئون الأسرة وعلاقات المجتمع الصغير والكبير ، المحلى والدولى حتى أن أطول آية فيه إنما أنزلت لتنظم شأناً من شئون الحياة الاجتماعية ، وهو كتابة الدين .

---

(٢٤) الحجر ٩

(٢٥) فصلت : ٤١ ، ٤٢

وإلى جانب هذا هو كتاب الإنسانية كلها ، وكتاب الحياة كلها . ولهذا « جعله الله للناس » و « للعالمين » كما قال تعالى : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس**»[٢٦] وقال سبحانه : « **إن هو إلا ذكر للعالمين** »[٢٧] .

فليس هو كتابا لجنس دون جنس ، ولا لوطن دون وطن ، ولا لطائفة من الناس دون أخرى .

ليس للعقليين دون العاطفيين ، ولا العكس ، وليس للروحيين دون الماديين ولا العكس . وليس للحكام دون المحكومين ، ولا العكس ، وليس للأغنياء دون الفقراء ولا للفقراء دون الأغنياء ، إنه كتاب الجميع ، ودستور الجميع .

فالقرآن دستور شامل ، وصفه منزله - وهو رب كل شيء - بأنه تبيان لكل شيء فقد خاطب الرسول المنزل عليه بقوله : « **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** »[٢٨] .

وقد قال الخليفة الأول : لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله .

فلم ينزله الله بياناً للعقيدة أو للعبادة فقط ، فيكون كتاباً فى اللاهوت . ولا بيانا للفضائل والآداب فقط ، فيضاف إلى كتب الأخلاق ، ولا بيانا للشرائع والأنظمة فحسب ، فيكون كتابا فى القانون ، ولكنه كتاب يضم ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، فى نسق فريد ونظم بديع .

اقرأ هاتين الآيتين فى سورة البقرة :

« **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزواً ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم . وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** »[٢٩] .

ترى كيف نصنف هاتين الآيتين ؟

إنهما تنضمنان تشريعاً للأسرة ، وتتضمنان كذلك تربيه وتوجيهات أخلاقيه

---

(٢٦) البقرة : ١٨٥

(٢٧) التكوير : ٢٧

(٢٨) النحل . ٨٩

(٢٩) البقرة . ٢٣١ - ٢٣٢

وإرشادات دينية ، وتذكيراً بالله واليوم الآخر ، وتقرران علم الله بكل شيء على حين لا يعلم البشر . .

فهل تُحْسَب هاتان الآيتان فى التشريع أم فى التربية أم فى العقيدة أم فى الآداب ؟ ـ الحقيقة أنهما فى ذلك كله فى وقت واحد .

ومن شمول القرآن : أنه لا يخاطب العقل وحده ولا القلب وحده ، بل يخاطب الكيان الإنسانى كله ، فيقنع العقل ، ويحرك القلب فى وقت واحد كذلك . فإذا قرأ الإنسان أو سمع مثل هذه الآيات : « **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك** »[٣٠] . يجدها تخاطب الإنسان كله : عقله ووجدانه وروحه ، فلا يكتفى بخطاب القلب والضمير وحده ، كما هو المعهود فى كتب الدين واللاهوت قبل القرآن ، ولا يخاطب الفكر والعقل وحده كما هو شأن كتب الفلسفة قديما وحديثاً . إنما هو يخاطب الذات الإنسانية بكل مقوماتها وخصائصها .

يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد :

« يخاطب الإسلام العقل ، ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان . وفى حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير إلى الحقيقة ، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التى يتحقق بها الإيمان : « **قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** »[٣١] « **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** »[٣٢] .

« وما كان الشمول فى العقيدة ليذهب مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان ، روحاً وجسداً ، وعقلاً وضميراً ، بغير بخس ولا إفراط فى ملكة من هذه الملكات »[٣٣] .

وهو لا يخاطب صنفاً واحداً من البشر له اتجاه عقلى أو نفسى معين ، مغفلا من عداه من الأصناف ذوى الاتجاهات المتعددة .

كلا ، إنه يخاطب كل الأصناف ، ويشبع كل الاتجاهات السوية .

(أ) إن طالب الحقيقة العقلية يجد فى القرآن ما يرضى منطقه ، ويأخذ بلبه إذا سمعه يصيح بالعقل أن ينظر ويفكر ، ويهيب به أن يرفض الظن والخرص واتباع الهوى والتقليد ، وأن يعتمد على البرهان وحده .

---

(٣٠) الانفطار : ٦ ـ ٨ (٣١) سبأ : ٤٦

(٣٢) البقرة ٢١٩ (٣٣) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٤ . أولى .

ويكفى أن مشتقات العقل ، مثل : « يعقلون » و « تعقلون » ذكرت فى القرآن ٥٨ ثمانية وخمسين مرة ، ودكرت مشتقات الفكر ١٧ سبع عشرة مرة ، وذكرت كلمة « الألباب » أى العقول ١٦ ست عشرة مرة . .

وهذا غير الآيات الكثيرة التى اشتملت على كلمات ومشتقات أخر مثل : النظر والاعتبار والتدبر والحجة والبرهان والنُهَى ونحو ذلك ، مما يبحث عنه طلاب الحقائق العقلية ، فلا يجدونه فى كتاب دينى غير القرآن .

(ب) والباحث عن الحقيقة الروحية ، يجد فى القرآن ما يرضى دوقه ، ويغذى وجدانه ، ويشبع نهمه وتطلعاته فى آفاق الروح ، فى مثل قصة موسى والعبد الصالح الذى قال الله فيه : « **فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً** »[٣٤] .

(جـ) والحريص على القيم الأخلاقية يجد فى القرآن ضالته وطلبته . وإذا كان موضوع الأخلاق هو « الخير » فالقرآن قد دل على « الخير » كما هدى إلى « الحق » وقد جعل فعل الخير إحدى شعب ثلاث لمهمة المسلم « **وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** »[٣٥] ولكنه لم يكتف من المسلم بفعل الخير ، بل طلب أن يدعو إليه ويدل عليه « **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير** »[٣٦] .

والأخلاق فى القرآن تحتل مساحة عريضة لا يتسع المقام للحديث عنها ، ونوصى بالرجوع إلى « دستور الأخلاق فى القرآن » للعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله .

(د) وعاشق القيم الجمالية يجد فى القرآن ما ينمى حاسته الجماليه ويغذى شعوره الفنى ، وذلك بما لفت إليه القرآن الأنظار من الاستمتاع بجمال الطبيعة « **وزيناها للناظرين** »[٣٧] « **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** »[٣٨] وجمال النبات « **وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** »[٣٩] « **فأنبتنا به حدائق ذات بهجة** »[٤٠] ، وجمال الحيوانات « **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** »[٤١] وجمال الإنسان

---

(٣٤) الكهف · ٦٥
(٣٥) الحج : ٧٧
(٣٦) آل عمران : ١٠٤
(٣٧) الحجر · ١٦
(٣٨) الملك : ٥
(٣٩) سورة ق : ٧
(٤٠) النمل : ٦٠
(٤١) النحل : ٦

« وصوَّركم فأحسن صوركم »[٤٢] وجمال المخلوفات كلها « صنع الله الذى أتقن كل شيء »[٤٣] .

ووراء ذلك كله ما احتواه أسلوب القرآن ذاته من جمال معجز فى شكله ومضمونه .

* * *

● **تنبيهات للداعية فى المجال القرآنى :**

وأود أن أنبه الداعية الذى يريد أن يعيش مع القرآن ، ليأخذ منه زاداً لقلبه ، ويقبس منه نوراً لعقله . ويستمد منه رياً لروحه ، ثم يمد الآخرين بعد ذلك من فيض هذا الرى ، وذاك النور ، ودلك الزاد ـ إلى عدة أمور :

● **جمع الآيات فى الموضوع الواحد وتصنيفها :**

فعلى الداعية إذا أراد أن يتحدث فى موصوع ما ـ محاضراً أو مدرساً أو خطيباً أو كاتباً ـ أن يجمع الآيات المتعلقة بموصوعه ، ويعمل على تصنيفها بما يلائم الغرض ، ويوضح نظرة القرآن إلى الموضوع .

وينبغى للداعية المتبصر هنا أن ينظر نظرتين :

إحداهما : تتعلق بالألفاظ القرآنية المتعلقة بموضوعه ، وهذه يفيد منها ـ إلى حد كبير ـ مراجعة المعجم المفهرس لألفاظ الفرآن الكريم ، ولا سيما لمن لم يكن مستظهراً القرآن .

والثانية : تتعلق بالمعانى المتصلة بموضوعه ، وهذه تحتاج إلى بصيرة وفطنة وحسن إدراك لما له صلة بالموصوع ، وإن لم يرد نفس اللفظ والعبارة .

والمهم فى هذا وذاك هو حس التصنيف والتقسيم الذى يوضح المعالم ، ويبرز المقومات والخصائص ، ويبين الأهداف والآثار .

لنأخذ مثلاً لذلك . فبالمثال يتضح المقال .

إذا أردنا الحديث عن القرآن والعلم ، فإننا نجد أنفسنا أمام حشد هائل من الآيات يبلغ المئات . فلهذا نكتفى بأخذ بعضها وتصنيفها أو وضع عناوين لها كما يلى :

---

(٤٢) التغابن . ٣ (٤٣) النمـل : ٨٨

● أولوا العلم قرناء الملائكة

« شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »[44] فبدأ سبحانه بنفسه وثنى بملائكته وثلث بأولى العلم ، مستشهدا بهم على تفرده بالألوهية .

● العلم يرفع أهله عن غيرهم

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[45] « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[46] .

● العلم أساس خشية الله

« إنما يخشى الله من عباده العلماء »[47] .

● الواجب على الجاهل أن يتبع العالم ولو كان أصغر منه :

« يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً »[48]

● قد يدرك الأدنى من العلم ما لا يدرك الأعلى :

فى قصة سليمان حين عزم على معاقبة الهدهد الغائب فجاء يخبره « فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين »[49] .

وفى قصة ابنى آدم حيث تعلم الإنسان من الغراب :

« فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ، فأصبح من النادمين »[50] .

● التعليم يرفع قدر المتعلم ولو كان كلباً :

« يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم »[51] وبهذا امتاز الكلب المعلم على كل كلب آخر .

---

(٤٤) آل عمران : ١٨ — (٤٥) الزمر : ٩

(٤٦) المجادلة : ١١ — (٤٧) فاطر : ٢٨

(٤٨) مريم : ٤٣ — (٤٩) النمل : ٢٢

(٥٠) المائدة : ٣١ — (٥١) المائدة : ٤

● الأمر بالرجوع إلى أهل العلم .

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[٥٢] « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »[٥٣] .

فسرت « أولوا الأمر » في هذه الآية بالعلماء كما فسرت بالأمراء .

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »[٥٤] . ويشير القرآن إلى أن الخبير بالشيء هو القادر على الإنباء بحقيقته دون شطط أو قصور - وذلك في قوله . « ولا ينبئك مثل خبير »[٥٥] ومن هنا يجب أن يُسئل الخبير دون غيره « فاسأل به خبيراً »[٥٦]

● العلم بحر لا ساحل له :

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »[٥٧]

● الازدياد في العلم مطلوب :

« وقل رب زدنى علماً »[٥٨] « وفوق كل ذى علم عليم »[٥٩] .

● الأنبياء يطلبون العلم عند من هم دونهم :

في قصة موسى وفتاه قال تعالى : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً »[٦٠] وموسى أفضل خلق الله في زمنه بلا نزاع

● الرحلة في طلب العلم :

« وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما »[٦١] « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها »[٦٢] .

إلى عشرات أخرى من الآيات تتعلق بموضوع العلم يجدها من يعيش مع القرآن .

---

(٥٢) النحل : ٤٣
(٥٣) النساء : ٥٩
(٥٤) النساء : ٨٣
(٥٥) فاطر : ١٤
(٥٦) الفرقان : ٥٩
(٥٧) الاسراء : ٨٥
(٥٨) طه . ١١٤
(٥٩) يوسف . ٧٦
(٦٠) الكهف : ٦٥ ، ٦٦
(٦١) الكهف : ٦٠ ، ٦١
(٦٢) الحج . ٤٦

ويستطيع الداعية المتمرس المتدبر لكتاب الله أن يخصص لنفسه سجلاً ، أو كشكولاً يدون فيه الموضوعات القرآنية ، وما يتعلق بها من آيات ، حسبما تهديه إليه بصيرته ووعيه وسيجد نفسه أمام عشرات ، بل مئات من الموضوعات الحية الدسمة .

وعليه بعد جمعها أن يحرص على تصنيفها بقدر ما يفتح الله عليه ، وسيجد عنده بعد زمن ذخيرة من القرآن لا تنفد ، وكنزاً من أسرار الحق لا يفنى .

* * *

● **العناية بالقصص القرآنى :**

ومما ينبغى للداعية الالتفات إليه ، والعناية به : القصص القرآنى ، وما اشتمل عليه من عبر وعظات وأسرار وحكم بالغة .

وطريقة القرآن فى سرد قصص الماضين لا تعتمد على ذكر التفصيلات ، كذكر أسماء الأشخاص والبلدان والتواريخ ونحوها ، إنما يهتم برؤوس العبر ، ورسم ملامح الشخصيات التاريخية ، واتجاهات الأحداث ونتائجها : « **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** »(٦٣) .

وعند سرد القصة نجد القرآن الكريم يضمنها كثيراً من الحقائق والأسرار العلمية والتوجيهية والتشريعية ، لتنفذ إلى النفس والعقل عن طريق غير مباشر .

فإذا أردنا أن نعرف مثلاً مكانة العلم فى القرآن ، فإننا نستطيع أن نجد ذلك فى آيات كثيرة مباشرة كما أسلفنا ، وأن نجده كذلك بصورة واضحة فى آيات القصص القرآنى ، وإن كانت غير مباشرة . نجد ذلك فى أربعة مواضع من القرآن .

الأولى : فى قصة آدم حين قال الله للملائكة : « **إنى جاعل فى الأرض خليفة** »(٦٤) واستغرابهم لذلك فى أول الأمر ، ثم تسليمهم لآدم بعد أن أثبت الاختبار الإلهى تفوقه العلمى قال : « **يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** »(٦٥) .

---

(٦٣) يوسف : ١١١
(٦٤) البقرة : ٣٠
(٦٥) البقرة : ٣٣

وهكذا أشار القرآن إلى أن العلم هو المرشح الأول للإنسان ليقوم بوظيفة الخلافة فى الأرض .

الثانية : فى قصة يوسف عليه السلام ، وما فيها عن استخدام « التخطيط » فى السياسة الاقتصادية والتموينية للدولة ، كما هو واضح فى الخطة الخمس عشرية التى وضعها يوسف عليه السلام ، وطبقها بنجاح ، عاد خيره على أهل مصر والمناطق المجاورة لها ، فى حين يظن بعض الناس أن التخطيط ينافى الدين والتوكل على الله .

الثالثة : فى قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ ، حيث استطاع أحد رجال سليمان أن يأتيه بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه بواسطة علم عنده « **قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** »[٦٦] وكان سليمان فى الشام وعرش بلقيس فى اليمن .

الرابعة : فى قصة ذى القرنين وبنائه السد العظيم من الحديد ، مخلوطاً بالنحاس المذاب ، وهو ما أثبت العلم الحديث أنه يعطى الحديد قوة ومتانة أكبر . « **آتونى زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً** »[٦٧] .

ومثل ذلك اذا أحببنا أن نتعرف على مكانة الإيمان فى نظر القرآن ، فلا ريب أننا سنجد أمامنا عشرات من الآيات الكريمة المباشرة ، تحدثنا عن الإيمان وأثره فى حياة الإنسان ، ولكننا نستطيع أن ندرك أثر الإيمان بصورة أقوى وأبلغ إذا نحن تأملنا عدداً من قصص القرآن .

نجد فى القرآن قصة الشباب حين يؤمن ، وماذا يصنع به الإيمان ، وذلك فى قصة فتية أهل الكهف الذين واجهوا بإيمانهم جمود المنكرين ، وطغيان المتجبرين : « **نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذن شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بَيّن ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً** »[٦٨] .

---

(٦٦) النمل : ٤٠

(٦٧) الكهف : ٩٦ ، ٩٧

(٦٨) الكهف : ١٣ — ١٥

ونجد فى القرآن قصة المرأة حين تؤمن ، وإن كانت زوجة لفاجر كفار ، أو مبتكر جبار . وذلك فى قصة امرأة فرعون ، التى لم تبال بملك فرعون ، ولم بغرها منه وعداً أو يثنها وعيد « **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** »(٦٩) .

ونجد فى القرآن قصة عوام الناس حين يؤمنون ، وكيف يغيرهم الإيمان وينشئهم خلقاً جديداً ، ويفجر فيهم طاقات نفسية عجيبة كانت دفينة محبوءة حتى أبرزها الإيمان ، وذلك فى قصة سحرة فرعون ، الذين تبين لهم الحق على يد موسى فآمنوا به ، متحدين حروب فرعون وتهديده « **وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ، إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** »(٧٠) .

* * *

● العناية بالنماذج القرآنية :

وعلى الداعية أن يعنى بالنماذج القرآنية التى تصور لنا الشخصية الإنسانية فى مختلف المجالات والأحوال .

ومن هذه النماذج القرآنية أذكر عدة أمثلة :

(أ) نموذج الغنى الشاكر فى شخصية سليمان الذى قال عندما سمع كلام النملة وفهم عنها « **رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه** » كما قال عندما أحضر له عرش بلقيس « **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم** » القصة مفصلة فى سورة النمل : (١٦- ٤٤) .

(ب) نموذج الحاكم أو الملك العادل الذى لم يلهه سعة ملكه عن عبادة ربه ، ورعاية شعبه ، فى شخصية ذى القرنين ، الذى بلغ بفتوحه مطلع الشمس ومغربها ، ولكنه ظل متمسكا بالعدل : يكافىء المحسن ويعاقب المسىء ويقاوم المفسدين فى الأرض ، ويقيم التحصينات ـ والسدود الضخمة مستعينا بالله أولا ،

---

(٦٩) التحريم : ١١ (٧٠) الأعراف : ١٢٠ ـ ١٢٦

ثم بجهود الشعوب آحرا . الآيات من سورة الكهف : (٨٣ - ٩٨) .

(جـ) نموذج المبتلى الصابر على البلاء ، والراضى بالقضاء ، فى شخصية أيوب : « **إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد ، إنه أواب** » سورة ص : (٤١ - ٤٤) .

(د) نموذج الشاب المتعفف عن الحرام ، برغم فتوته وجماله ونضرة شبابه وقوة دواعى الإغراء من حوله ، وإحاطة أسبابها به - فى شخصية يوسف الصديق « **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** » الآيات من سورة يوسف : (٢٣ - ٣٣) .

(هـ) نموذج الشاب الممتثل لأمر الله وإن كان فيه تقديم عنقه قرباناً إلى الله فى شخصية الذبيح إسماعيل بن إبراهيم حيث قال له أبوه ، لما بلغ معه السعى : « **يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** » . . الآيات من سورة الصافات : (١٠٠ - ١٠٩) .

(و) نموذج المؤمن الذى يكتم إيمانه لمصلحة ، فإذا جاء وقت الحاجة برز بإيمانه يدافع عن الحق ، ويقاوم الباطل ، ويجادل بالحكمة ويؤثر بالموعظة ، ويدعو على بصيرة - فى شخصية مؤمن آل فرعون . « **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** »؟ . . الآيات من سورة غافر : (٢٨ - ٣٤) .

(ز) نموذج الداعية صاحب الرسالة ، يحكم عليه بالسجن ظلماً ، فلا ينسيه ظلم السجن وظلمته حق دعوته عليه ، فينتهز كل فرصة لدعوة السجناء إلى توحيد الله واطراح الوثنية المخرفة فى شخصية يوسف بن يعقوب « **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** » ؟ الآيات من سورة يوسف : (٣٧ - ٤٠) .

(ح) نموذج الابن المؤمن وأبوه كافر ، وكيف يتلطف معه فى إسماع الدعوة وتبليغ الرسالة - وذلك فى شخصية إبراهيم وأبيه « **إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا** » ؟ . . سورة مريم : (الآيات : ٤١ - ٤٨) .

(ط) نموذج الأب المؤمن وابنه كافر ، وكيف حاول الأب إنفاذه فلم بفلح ، وكيف حاول أن يشفع له عند ربه فعوتب فى ذلك أشد العتاب ، وذلك فى شخصية نوح وابنه الكافر . . سورة هود : (الآيات : ٤٢ - ٤٧) .

(ى) نموذج المرأة المؤمنة وزوجها كافر متعنت بل متأله . وذلك فى شخصبة آسية امرأة فرعون وزوحها الطاغية الجبار الذى حشر فنادى فقال : أنا ربكم الأعلى ، فلم يطمعها ملكه ، ولم يخفها جبروته ، ولم تعبأ بوعده ووعيده ، واتجهت إلى ربها قائلة « **رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** » سورة التحريم : (الآية : ١١) .

(ك) نموذج المرأة الكافرة وزوجها مؤمن ، مثل امرأة نوح وامرأه لوط : « **كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** » سورة التحريم (الآية : ١٠) .

(ل) نموذج الإنسان الخير المسالم ، الذى يقابل العدوان بالتقوى ، والسيئة بالحسنة ، والشر بالخير ، فى شخصية ابن آدم الذى تسميه الإسرائيليات « هابيل » والذى هدده أخوه بالقتل ، فأجابه : « **لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين** » سورة المائدة : (الآيات : ٢٧ - ٢٩) .

(م) نموذج الإنسان الشرير ، الذى يعتدى على أخيه ويلغ فى دمه دون جرم جناه لا يردعه دين ولا خلق ولا رحم ، فى شخصية ابن آدم المتسمى « قابيل » والذى لم يردعه عن قتل أخيه - ابن أمه وأبيه - موقفه الإنسانى المثالى منه - « **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** » . سورة المائدة : (الآيات : ٣٠ ، ٣١) .

(ن) نموذج الشعب الجبان فى وقت الكريهة ، الفرّار فى ساعة الشدة ، المتمرد على أنبيائه - فى شخصية الشعب الإسرائيلى حين قال له رسوله ومحرره ومن أنقذه الله على يديه - موسى عليه السلام : « **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها**

أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » سورة المائدة : (الآيات : ٢٠ - ٢٦) .

(ص) نموذج الأمة التى لا تحترم نعمة الله ، ولا تقوم بحق شكرها ، فيسلبها الله منها ، وذلك فى شخصية قوم سبأ « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور » سورة سبأ (الآيات : ١٥ - ١٧) .

* * *

● حسن الاستدلال بآيات القرآن :

ومما ينبغى للداعية أن يتحراه ويحرص عليه ويُحكمه : حسن الاستدلال بالقرآن وآياته على ما يريد تقريره ، أو تثبيته من أحكام وتعاليم وأفكار . فإنه إذا أحسن الاستدلال بالنص القرآنى ، ووضعه فى موضعه ، أزاح كل شبهة ، وقطع كل تعلة ، وأخرس كل معارض ، فلا دليل بعد القرآن ، ولا حديث بعد كلام الله . « ومن أصدق من الله حديثا »(٧١) « ومن أصدق من الله قيلاً »(٧٢) « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون »(٧٣) .

ولهذا لا يملك المؤمن أمام الدليل القرآنى الصريح إلا أن يقول : آمنا وصدقنا . أو : سمعنا وأطعنا . كما قال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً »(٧٤) .

قد أدخل رجل على المأمون ، كان يمشى فى الناس فيأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، دون أن يكون مأموراً من قبل الخليفة . فقال له المأمون : لم تأمر وتنهى وقد جعل الله ذلك إلينا . ونحن الذين قال الله - تعالى - فيهم : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »(٧٥) فقال الرجل : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت كما وصفت نفسك

---

(٧١) النساء : ٨٧
(٧٢) النساء : ١٢٢
(٧٣) المائدة . ٥٠
(٧٤) الأحزاب . ٣٦
(٧٥) الحج ٤١

من السلطان والتمكن غير أنا أولياؤك وأعوانك فيه ـ ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ قال الله تعالى : «**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**»[٧٦] . وقال رسول الله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . فأعجب المأمون بكلامه ، وسر به وقال : « مثلك يجوز أن يأمر بالمعروف ، فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا » .

وهكذا حين أحسن الرجل الاستشهاد بالقرآن والسنة ، انقطعت حجة الخليفة ، ولم يجد بداً من إقرار الرجل على ما هو عليه .

وفى مقابل ذلك ،دخل واعظ على المأمون فوعظه ، وعنف له فى القول ، فقال المأمون : يارجل ، ارفق ، فإن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر منى ، وأمره بالرفق : بعث موسى وهارون إلى فرعون ، فأوصاهما بقوله : « **فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** »[٧٧] .

وهنا كان موقف المأمون هو الأقوى ، لأن الدليل القرآنى معه

والواجب على الداعية أن يراعيه فى هذا المقام أن يستدل بالمتفق عليه ، لا بالمحتمل والمختلف فيه . فإن الدليل الذى يتطرق إليه الاحتمال ، يسقط الاستدلال به .

فعند الحديث عن شمول القرآن ـ مثلاً ـ يستدل بعض الناس بقوله تعالى فى سورة الأنعام : « **ما فرطنا فى الكتاب من شيء** »[٧٨] .

مع أن الكتاب فى الآية يحتمل أن يكون هو القرآن ، فيكون الاستدلال صحيحاً ويحتمل أن يكون المراد به « اللوح المحفوظ » الذى كتب الله فيه مقادير الخلائق كما فى قوله ـ تعالى ـ « **وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين** »[٧٩] « **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** »[٨٠] وغيرها من الآيات . والأولى هنا أن يستدل على شمول القرآن بقوله تعالى : « **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** »[٨١] فهى صريحة فى الدلالة على المراد .

كما أن على الداعية أن يتجنب الاستدلال بما ليس بدليل .

---

(٧٦) التوبـه . ٧١
(٧٧) طـه ٤٤
(٧٨) الانعـام ٣٨
(٧٩) يـس ١٢
(٨٠) الاحـزاب . ٦
(٨١) النحـل ٠ ٨٩

مثال ذلك : أن بعض الناس يستدلون على أن من ثمار تقوى الله أن يعلمه ما لم يكن يعلم ـ بقوله تعالى فى ختام آية المداينة من سورة البقرة : « **واتقوا الله ، ويعلمكم الله** »[٨٢] .

والحق أن الآية لا تدل على هذه الدعوى ، لأنها ليست أمراً وجواباً ، فإنما كان يصح ذلك لو كان لفظها : « واتقوا الله يعلمكم الله » . أما الآية أو هذه الفقرة منها ـ فإنها تتضمن أمراً بتقوى الله ، كما هى سنة القرآن حين يقرن الأوامر والنواهى بالتقوى . ثم بعد ذلك قال : «**ويعلمكم الله**» أى هده الأوامر والأحكام ، كما قال فى آية أخرى : « **يبين الله لكم أن تضلوا** »[٨٣] .

أما الاستدلال على الدعوى المذكورة فيمكن بقوله تعالى فى سورة الأنفال : « **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا** »[٨٤] . أى نوراً تفرقون به بين الحق والباطل .

ومثلها قوله فى سورة الحديد : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به** »[٨٥] .

بل يمكن أن يستدل بعموم قوله تعالى : « **ومن يتق الله يجعل له مخرجا** »[٨٦] لأنه يشمل المخرج من الشبهات والمتشابهات .

* * *

● **الحذر والتحذير من سوء التأويل وتحريف الكلم عن مواضعه :**

ويجب على الداعية أن يحذر ويحذر من الانحراف والتحريف ، وسوء التأويل لآيات الكتاب ، وحملها على معان تخرجها عما أراد الله بها . وهذا نوع من التحريف الذى ذم الله عليه أهل الكتاب ، فقد حرّفوا كتبهم لفظياً بالزيادة والنقصان ، ومعنوياً بسوء التأويل .

أما القرآن فهو محفوظ فى الصدور والمصاحف ، ولا سبيل إلى تحريفه تحريفاً لفظياً ، ولكن قد يدخل فى تفسيره سوء التأويل ، وهو التحريف المعنوى ـ وأيضاً الرأى المذموم الذى جاء الحديث يتوعد من فسر به القرآن .

---

(٨٢) البقـرة ٢٨٢ — (٨٣) النســاء . ١٧٦

(٨٤) الأنفــال : ٢٩ — (٨٥) الحديـد ٢٨

(٨٦) الطــلاق : ٢

وفى عصرنا ـ كما فى عصور سابقة ـ كثرت أسباب الانحراف والتحريف . ومن هذه الأسباب :ـ

١ ـ **اخضاع النصوص للواقع الزمنى** : وإن كان مخالفاً للإسلام ، ومحاولة أخذها من تلابيبها وتأويلها تأويلاً بعيداً عن الظاهر ، لتبرير هذا الواقع بإعطائه سنداً من الشرع .

كما رأينا ذلك فى محاولات تسويغ نظام الفائدة فى البنوك عند سطوة الرأسمالية فى البلاد الإسلامية ، ومثلها محاولات تبرير التأميم والمصادرة للملكيات المشروعة بعد ذلك أيام سطوة الاشتراكية .

ومن ذلك الانحراف فى تفسير الآيات والأحاديث عن مدلولاتها الظاهرة الواضحة إلى تأويلات بعيدة غير سائغة ولا لائقة ، ولا منسجمة مع السباق والسياق ، اتباعاً لفكرة شائعة أو نظرية سائدة ، لم تبلغ مبلغ الحقائق العلمية . كما وقع فى ذلك بعض العلماء المعاصرين ، وغيرهم من الكاتبين المتسرعين .

٢ ـ **تبنى مذهب أو فكرة أو اتجاه سابق ، ثم اتخاذ النصوص بعد ذلك دليلاً له** :

وهو ما عبر عنه بعض علمائنا : أن يعتقد ثم يستدل ، مع أن المنهج السليم أن يستدل ثم يعتقد .

وهذا ما رأيناه لدى كثير من علماء الكلام والفلاسفة والفرق المختلفة ، والمقلدين فى الفقه ، فقد جعلوا مذاهبهم أصلاً ، ثم شدوا النصوص شداً لتأييد المذهب ، وإن كان فى ذلك التكلف والتمحل ، وإن لم يجدوا مجالاً للتأويل لجئوا إلى القول بالنسخ ، مع أن النسخ لا يثبت بالاحتمال .

وقد رأينا ابن سينا وأمثاله من كبار الفلاسفة فى العصور الإسلاميه ، اعتقدوا صحة ما ذهب إليه أرسطو وغيره من فلاسفه اليونان فى الإلهيات والطبيعيات وغيرها ، فلما اصطدم ذلك بآيات القرآن الوفيرة ، طفقوا يؤولونها تأويلات ترفضها اللغة ، كما يرفضها الدين ، حتى كفرهم الغزالى ومن بعده فى ثلاث مسائل معروفة أنكروا فيها ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

٣ ـ **تجزئة النصوص وتفكيكها ، وعدم ربط بعضها ببعض** . مع أن الواجب أن يؤخذ فى القضية المطروحة ، كل ما ورد فيها من نصوص ، والتوفيق بين بعضها وبعض ، لمعرفة المعنى المراد من مجموعها .

فمن أراد أن يعرف حكم القرآن فى الربا فلا يسوغ له أن يقتصر على قوله

تعالى فى سورة آل عمران : « **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** »[87] دون أن يضم إليها قوله تعالى فى سورة البقرة : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمونَ ولا تُظلمون** »[88] . فدل على أن ما زاد على رأس المال فهو ربا ، قليلاً كان أو كثيراً ، وإذن تكون عبارة « **أضعافا مضاعفة** » وصفاً لبيان الواقع ، وليس قيداً حقيقياً كما تقول للتجار الجشعين : لا تحتكروا الضروريات لتربحوا مائتين فى المائة ، فهذا بيان لواقعهم ، وليس معناه أنهم إذا احتكروا الطعام ونحوه ليربحوا مائة أو خمسين فى المائة أو أقل أو أكثر كان ذلك حلالاً .

٤ ـ **اتباع المتشابهات وترك المحكمات** . وهذا أصل من أصول الزيغ والضلال كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب** »[89] . بينت الآية الكريمة أن من آيات الكتاب محكمات ، أى قاطعات أو واضحات الدلالة لمن تأملها ، وهى أم الكتاب ، أى أساسه ومعظمه وأكثره ، ومعنى هذا : أن الفرع يجب أن يرد إلى الأصل أو الأم ، والأقل يجب أن يفسر تبعاً للأكثر . ولكن الضالين الذين فى قلوبهم زيغ وانحراف ، يجرون وراء المتشابهات ، متمسكين بما يظهر لهم منها ، موافقاً لأهوائهم . ولو أنهم أنصفوا فردوا المتشابهات إلى المحكمات ، وبعبارة أخرى : « ردوا المحتملات إلى القواطع والبينات » للاح لهم الحق واضحاً وضوح الصبح لذى عينين .

وإذا تتبعنا الفرق المنحرفة التى خالفت عن صراط السنة والجماعة منذ صدور الإسلام إلى اليوم ، وجدنا من أهم وأبرز أسباب انحرافها : اتباع المتشابهات وترك الأصول المحكمات .

وما من بدعة من البدع المارقة إلا ولأهلها شبه يتكئون عليها من هذه المتشابهات حتى أن القائلين بوحدة الوجود ، وهم ـ كما قال صاحب « إيثار الحق على الخلق » ـ أشنع المبتدعين بدعة وأبعدهم عن القرآن والسنة وأفحشهم قولاً .

---

(٨٧) آل عمــران : ١٣٠

(٨٨) البقــرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩

(٨٩) آل عمــران : ٧

ومع ذلك يحتجون لبدعتهم وضلالهم بمتشابهات من القرآن والحدث ، فيذكرون مثل قوله تعالى : « **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** »[٩٠] . « **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** »[٩١] .

وبحديث : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . متفق عليه .

وأغفل هؤلاء أن الدين كله بقرآنه وسننه ، بل الأديان السماوية كلها تنادى بأن فى الوجود ربا ومربوباً ، وخالقاً ومخلوقا ، وكوناً ومكونا ، فثنائية الوجود من بدهيات الدين وضرورياته التى لا تحتاج الى استدلال وإقامة برهان . بل إن النصارى حاولوا ويحاولون أن يجدوا فى متشابه القرآن ما يسند دعواهم بألوهية المسيح أو بنوته لله ، من مثل قوله تعالى : « **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** »[٩٢] تاركين المحكم من مثل قوله تعالى : « **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل** »[٩٣] . « **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام** »[٩٤] . « **ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم** »[٩٥] « **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** »[٩٦] « **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** »[٩٧] .

والمقصود أن اتباع المتشابه هو دأب الزائغين من قبل ومن بعد .

* * *

● علوم القرآن :

ومما يلزم الداعية معرفته : علوم القرآن ، وهى بمثابة مدخل لابد منه لدراسة القرآن ذاته . وقد ألفت فيها كتب جامعة قديما وحديثا . فمن كتب القدماء . « البرهان فى علوم القرآن » للإمام الزركشى ، و « الإتقان فى علوم القران » للحافظ السيوطى . ومن الكتب الحديث : « مناهل العرفان فى علوم القران » للزرقانى و « مباحث فى علوم القرآن » للدكتور صبحى الصالح ومثله للشيخ مناع القطان ، وكثير غيرها مما ألف لطلاب الكليات الإسلامية .

كما ألفت كتب قديمة وحديثة فى بعض أنواع من علوم القران ، مثل الكتب

---

(٩٠) الفتح ١ـ
(٩١) الأنفال ١٧
(٩٢) النساء . ١٧١
(٩٣) الزخرف : ٥٩
(٩٤) المائدة . ٧٥
(٩٥) المائدة : ١١٧
(٩٦) المائدة : ٧٣
(٩٧) المائدة ٧٢

التى تبحث فى « إعجاز القرآن » وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق . أو ما يتعلق بالتفسير مثل « رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية فى أصول التفسير » و « التفسير والمفسرون » للشيخ الدكتور الذهبى ، « والنسخ فى القرآن الكريم » للدكتور مصطفى زيد . وما كتب حول « ترجمة القرآن » بين المؤيدين والمعارضين ، مثل الشيخ المراغى ومحمد فريد وجدى والشيخ محمد سليمان وغيرهم .

* * *

● **تفسير القرآن :**

ولا ريب أن أهم علوم القرآن هو « التفسير » الذى يعين على فهم المراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

وقد دوّن فى تفسير القرآن مئات ومئات من الكتب منها ما فقد ، ومنها ما بقة وهذا الذى بقى منه ما طبع ومنه ما يزال مخطوطاً .

من هذه الكتب ما يذهب مذهب الرواية ، ويسمى « التفسير بالمأثور » ومنها ما ينحو نحو الدراية ويسمى « التفسير بالرأى » ولكل منها خصائصه ومميزاته وعيوبه . فمما يغلب على كتب التفسير المأثور : وجود الإسرائيليات فيها ، وكذلك الموضوع والضعيف من الروايات .

ومما يغلب على كتب « التفسير بالرأى » غلبة الطابع الشخصى أو المذهبى أو الزمنى على مؤلفها ، حتى إن التفسير ليتلون بلون صاحبه ، وينطبع بطابع عصره وثقافته واتجاهه إلى حد كبير . تفسير العالم اللغوى والنحوى غير تفسير الفقيه ، وهما غير تفسير المتكلم وتفسير المعتزلى غير تفسير الأشعرى ، وتفسير هؤلاء جميعاً غير تفسير الصوفى .

ولا يحسن بالداعية أن يكتفى بكتاب واحد منها ويهمل سائرها ، فإن لكل منها مزية لا توجد ـ غالباً ـ عند غيره ، فالأولى أن ينهل منها ما استطاع وأن يقبس من كل كتاب خير ما فيه ولب ما يتميز به ، ويحترز مما فيه من أهواء أو شطحات . فتفسير مثل « الكشاف » للزمخشرى ـ رغم نزعته الاعتزالية ـ لا يحسن الإعراض عنه ، بل ينبغى الاستفادة من مباحثه البلاغية وغيرها وكذلك فعل أهل السنة من قديم ، لم يمنعهم اعتزاله أن ينتفعوا به . فمنهم من خرج أحاديثه كالحافظ ابن حجر ، ومنهم من تعقبه فى مواضع الاعتزال كابن المنير .

فإن كان ولابد من التخير والانتقاء ، فإني أوثر في التفسير كتابي ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) وابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) وإن كان ولابد من أحدهما : فتفسير ابن كثير ، لأنه جمع خلاصة ابن جرير مع زياده تنقيح وتهذيب ، وحسن ترجيح وتعقيب . وقد قال فيه السيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ والزرقاني في شرح المواهب : إنه لم يؤلف على نمطه مثله [٩٨]

وفي رأيي أنه تفسير رواية ودراية معاً .

وأما كتب التفسير بالرأي فيؤخذ منها ويترك ، ولكل منها مزاياه وعيوبه . ومن أمثلها في نظري تفسير ابن عطية والقرطبي .

أما تفاسير المحدثين ، فهي كثيرة منها : تفسر القاسمي ، وتفسير المنار ، وتفسير ابن عاشور ، وتفسير ابن باديس ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ، والتفسير الحديث لدروزه ، وتفسير الأجزاء العشرة الأولى لشلتوت . وغيرها . .

ولا يستغني الداعية عن الاستفادة منها ، مع الحذر مما قد يكون فيها من غلو أو تقصير وكل بشر غير معصوم يؤخذ من كلامه ويترك .

* * *

وصايا لقارىء كتب التفسير :

ولا أنسى هنا أن أهمس في أذن الداعية أو طالب الدعوة ، الذي يريد أن يطالع كتب التفسير ، ويغترف من معينها ، بعدة وصايا ، استفدتها من قراءاتي وتجربتي .

١ ـ الاهتمام بلباب التفسير .

أما وصيتي الأولى ، فهي الإعراض عن الحشو والفضول والاستطراد ، الذي انتفخت به بطون كتب التفسير ، من الاستغراق في المباحث اللفظية ، أو المسائل النحوية والنكات البلاغية ، والتطويل في المجادلات الكلامية ، والخلافات الفقهيه وغير ذلك من ألوان الثقافات التي شغلت حيزاً ضخماً من كتب التفسير ، حتى حجبت قارئها عن إدراك أسرار كلام الله تعالى ، وهو الذي ألفت كتب التفسير من أجله . وهذا ما جعل أبا حيان يقول عن التفسير الكبير أو « مفاتيح

---

(٩٨) الرسالة المستطرفة للكتاني ص ١٤٧ نقلا عن (التفسير والمفسرون) ج ١ ص ٢٤٧ ط أولى

الغيب » - للإمام الرازى كلمته المشهورة : فيه كل شيء إلا التفسير[99] !

ولا ريب أن هذه الكلمة غلو من أبي حيان . ففى الكتاب لفتات تفسيرية رائعة لا تجدها فى غيره .

ولكن استطرادانه الطوبله المديدة فى شتى العلوم ، ومجادلاته الواسعة مع أرباب المذاهب الكلامية والفقهية ، قللت من الإفادة بالكتاب .

ومن تم تجب العناية بلباب التفسر : أى ببيان المراد من كلام الله تعالى قبل الجرى وراء القيل والقال ، وإضاعة الجهد والوقت فيما لا طائل تحته ، ولا ثمرة تجنى من ورائه .

وكثيراً ما يذكر بعض العلماء فى الآية عشرة أقوال - أو أقل أو أكثر - لزيد وعمرو وبكر من الناس . دون أن يبين أى قول منها هو المعتمد وقد يختار قولاً منها دون أن يوضح سر اختياره وترجيحه .

وإذا كان هذا مطلوباً من كل عالم أو طالب علم ، فهو ألزم ما يطلب للدعاة إلى الله . فالداعية لا يؤثر فى عقول الناس وعواطفهم بالمباحث النحوية والبلاغية والمجادلات الكلامية والفقهية وإنما يؤثر فيهم بما يجلّيه من أسرار الحق وأنوار الهداية فى كلمات الله .

ولهذا يجب على الداعية أن يلتفت إلى ما فى التفسير من تعقيبات ذوى القلوب الحية ، مما قد لا يعد من « مادة التفسير » وإن كان يعد من « روح التفسير »

مثال ذلك ، قوله تعالى :

« **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** »[*] فالمعنى واضح وهو أنه تعالى عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم - إذا بذلوها فى سبيله - بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له .

ولكن لبعض المفسرين من أرباب البصائر هنا لفتات إشراقية ، تحرك

(٩٩) وكذلك قال السيد رشيد رضا عن تفسير « الجواهر » للشيخ طنطاوى جوهرى ، لكثرة استطراداته وتوغلاته فى العلوم الحديثة المناسبة وغير مناسبة أكثر مما اهتم بالتفسير ذاته

(*) التوبة . ١١١

القلوب الهامدة ، وتحيى العزائم الميتة ، بما فيها من حرارة الصدق ، وصفاء الإخلاص . من ذلك قول الحسن البصرى وقتادة تعليقاً على الآية : بايعهم والله فأغلى ثمنهم !

وقول الحسن أيضاً : أنفساً هو الذى خلقها ، وأموالا هو الذى رزقها !

وقول شمّر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله فى عنقه بيعة وفى بها ، أو مات عليها . ثم تلا هذه الآية .

هذا ما ينبغى للداعية أن يحرص عليه ، ويستظهره ، ويستزيد منه .

٢ - الإعراض عن الإسرائيليات

وإن مما شوه تراثنا الثقافى - وخصوصاً فى ميدان التفسير - تسرب الإسرائيليات إليه ، وتعكيرها لصفوه .

وقد بدأ هذا التسرب - للأسف الشديد - منذ عهد مبكر . أى من عهد الصحابة والتابعين ، على أيدى أمثال : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وغيرهما ممن دخل فى الإسلام من أهل الكتاب . وكذلك ما وصل إلى المسلمين من كتب اليهود والنصارى .

ولكن التسرب كان فى أول الأمر قليلًا ثم كثر ، ضيقاً ثم اتسع ، عفوياً ثم طفق يأخذ صفة الكيد والتدبير . والدس المتعمد .

وكأن اليهودية حين منيت أمام دعوة الإسلام بالهزيمة العسكرية ، فى المدينة وخيبر وغيرهما ، أرادت أن تقاوم الإسلام بسلاح آخر يعوضها عن هزيمتها وذلك هو سلاح الغزو الثقافى ، فدست إسرائيلياتها المنكرة ، فى غفلة من الزمن ، فلم تمض برهة حتى غصت بها كتب المسلمين .

هذا مع أن القرآن الكريم ، قد سجل على أهل الكتاب عامة واليهود خاصة ، تحريفهم لكتبهم ، وقولهم على الله بغير علم ، وإن منهم لفريقاً **« يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون »**[١٠٠] . **« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى »**[١٠١] وإنهم **« يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً »**[١٠٢] وأنهم **« نسوا حظاً مما ذكروا**

---

(١٠٠) البقرة : ٧٥ (١٠١) البقرة : ٧٨
(١٠٢) البقرة : ٧٩

به »[103] وأنهم « يحرفون الكلم عن مواضعه »[104] إلى آخر ما دمغهم آلله تعالى به من صفات السوء .

ومع أن الرسول ـ ﷺ ـ رأى صحيفة من التوراة فى يد عمر بن الخطاب ، فغضب وقال « أو متهوكون فيها ـ أى أمتحيرون فى ملتكم ـ يا ابن الخطات ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية والذى نفسى بيده ، لو كان موسى حياً ما حل له إلا أن يتبعنى » .

فكيف مع هذا نساهل المسلمون فى الأخذ عن أهل الكتاب وعن بنى إسرائيل على الخصوص ؟ يبدو لى أن هناك سببين لهذا التساهل .

أولهما : ما فهموه من حديث البخارى عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وقد ذكره ابن كثير فى مقدمة تفسيره مستدلا به على جواز التحدث عنهم فيما لا نعلم كذبه من ديننا .

وسبب آخر جعلهم يروون هذه الإسرائيليات فى التفسير ، وهو أن كثيراً منها يتعلق بأمور مسكوت عنها ، ليست مما علم المسلمون صحته مما بأيديهم مما يشهد له بالصدق ، ولا مما علموا كذبه بما عندهم مما يخالفه . ولكنها أشياء لا من هذا القبيل ولا ذاك ، فلا تصدق ، ولا تكذب ، وتجوز على هذا حكايتها وغالبها مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى .

قال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره ـ وهو منقول من رسالة شيخه ابن تيمية ـ : « ولهذا يختلف أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون مثل أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ! وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ! وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله ـ تعالى ـ فى القرآن ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم . ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز . كما قال تعالى : « سيقولون : ثلاثة رابعهم ـ كلبهم . . . » إلى آخر الآية .

---

(103) المائدة ١٣ ـ بلفظ : « ونسوا . . »

(104) النساء : ٤٦ ، المائده : ١٣

وقد عقب على ذلك العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ فقال وأحسن فيما قال : « إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه ـ شيء ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن ، وجعله قولاً أو رواية فى معنى الآيات ، أو فى تعيين ما لم يعين فيها ، أو فى تفصيل ما أجمل فيها ـ شيء آخر ، لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذى لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما أجملْ فيه ! وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

وإن رسول الله ﷺ ـ إذ أذن بالتحدث عنهم ـ أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . فأى تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟ اللهم غفرا .

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه فى تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف ، بعد أن ذكر أقوالاً فى « إبليس » واسمه ، ومن أى قبيل هو ؟ : « وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا . وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ـ كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء[١٠٥] . وقال فى أول سورة (ق) : « وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق ، جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف !!! وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، بما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم . كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبى ﷺ ، وما بالعهد من قدم . فكيف بأمة إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته ـ وإنما أباح الشارع فى الرواية عنهم فى قوله « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوزه العقل . فأما فيما تحيله

(١٠٥) عمدة التفسير ح ١ ص ١٥

العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب علىّ الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل » .

« وقال عند تفسير الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة النحل ، وقد ذكر فى قصة ملكة سبأ أثراً طويلاً عند ابن عباس ، وصفه بأنه «منكر غريب جداً » ثم قال : « والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم ، كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد والضرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف ونسخ ، وقد أغناها الله - سبحانه - عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة »(١٠٦) .

ولابن كثير - رحمه الله - فى تفسيره تعقيبات كثيرة من هذا النوع على الإسرائيليات ، تتضمن إنكاره عليها ، ورفضه لها ، وإن كان يذكرها تبعاً لمن قبله . وفى بعض الأحيان يرفض ذكرها بالكلية ، مبقياً القرآن على إجماله دون الخوض فى تفصيلات لم يأت بها حديث ثابت عن معصوم .

وذلك كما فى تفسير قوله تعالى فى سورة (ص) : « **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داوود ففزع منهم** » (الآيات : ٢١ - ٢٥) فقد قال ابن كثير :

« قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده : لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس - رضى الله عنه - ويزيد وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله - عز وجل - فإن القرآن حق وما تضمنه فهو حق أيضا(١٠٧) .

وكنت أود أن يقف ابن كثير هذا الموقف من قصة سليمان فى قوله تعالى فى سورة (ص) أيضا : « **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب** »(١٠٨) . ولكنه - رحمه الله - أطال وأطنب فى سرد الروايات العجيبة الغريبة

(١٠٦) عمدة التفسير ج ١ ص ١٧
(١٠٧) تفسير ابن كثير ٤ ص ٣١ ط عيسى الحلبى (١٠٨) سورة ص ٣٤

المروية عن ابن عباس وقتادة والسدى ومجاهد وكعب الأحبار وغيرهم من مفسرى السلف ، وكلها مما لا يقبله عقل ، ولا يصدقه نقل ، وقد ذكر حديثا منها رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ ثم قال : إسناده إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوى ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إن صح عنه ، من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه .. إلى أن قال :

« وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف ـ رضى الله عنهم ـ كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب »[١٠٩] .

فلم إذن تسويد الصفحات ، وإضاعة الأوقات فيما لا يسنده علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ . وقد قال ابن كثير عند تفسير الآيات (٥١ ـ ٥٦) من سورة الأنبياء : « والذى نسلكه فى هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها الكذب المروج عليهم .. » وليته أعرض عنها كلها لا عن كثير منها ، فإن القليل منها إثمه أكبر من نفعه .

ومن الكلمات البليغة المعبرة عن الإنكار والسخط على هذه الإسرائيليات ووجوب تنزيه القرآن عنها :

كلمة لابن عباس رواها البخارى فى صحيحه ، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير ، عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة . فقال ابن عباس : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرأونه محضاً لم يشب ! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً . أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم » .

وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخارى فى ثلاثة مواضع من صحيحه[١١٠] .

---

(١٠٩) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٤ ـ ٣٧

(١١٠) مقدمة عمدة التفسير ج ١ ص ١٩

٣ - الحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة :

وإذا كان على الداعية أن يحذر من الإسرائيليات التى كدرت صفاء التفسير بما دسته من سموم . فإن عليه كذلك أن يحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة التى حشى بها كثير من كتب التفسير .

سواء من ذلك ما كان مرفوعاً إلى النبى ﷺ - وما كان موقوفاً على بعض الصحابة ، مثل على وابن عباس وغيرهما ، وما كان منسوباً إلى بعض التابعين مثل مجاهد وعكرمة والحسن وابن جبير وغيرهم ، أو منسوباً إلى من بعدهم من أهل العلم .

وكان مثل ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن جرير الطبرى ، يجمعون فى تفسيرهم الصحيح والحسن ، والضعيف والمنكر ، بل الموضوع أحياناً من الأحاديث المرفوعة والروايات الموقوفة والمقطوعة .

وإذا أخذنا مفسراً كابن عباس مثالاً لنا فيما نقوله . وجدنا الطرق إليه تختلف قوة وضعفاً ، وقبولاً ورداً .

فهناك طريق معاوية بن صالح عن على أبى طلحة عن ابن عباس . وهذه هى أجود الطرق عنه .

ونحوها : طريق قيس بن مسلم الكوفى عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس .

ودونها : طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو ابن جبير عن ابن عباس ، وأسنادها حسن .

ودونها : طريق إسماعيل السدى الكبير عن أبى مالك أو عن أبى صالح عن ابن عباس . والسدى هذا مختلف فيه ، ولكن روى له مسلم وأهل السنن الأربعة .

وهناك طريق ابن جريج عن ابن عباس ، وهذه تحتاج إلى نظر ودقة فى البحث لأن فيها الصحيح والسقيم ، لأن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع .

وهناك طريق الضحاك بن مزاحم الهلالى عن ابن عباس ؛ وهى **منقطعة** إليه ، لأن الضحاك روى عنه ولم يلقه . وفى هذه الطريق من الضعفاء من روى

عن الضحاك مثل بشر بن عمارة عن أبي روق عنه .

وهناك طريق عطية العَوْفي عن ابن عباس ، وعطية ضعيف .

وطريق مقاتل بن سليمان ، وقد ضعفوه ، وقد يروى عن مجاهد والضحاك ولم يسمع عنهما ، وقد كذبه غير واحد ، ولم يوثقه أحد .

وهناك طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وهذه هي أوهى الطرق عنه . فان انضم إلى طريق الكلبي رواية محمد بن مروان السدي الصغير ، فهي سلسلة الكذب ، كما قال ابن حجر والسيوطي وغيرهما .

ومع هذا فإن المفسرين المتقدمين دونوا هذه الروايات بعُجرها وبُجرها ، حتى أوهى الطرق عن ابن عباس كثيراً ما يخرج منها الثعلبي والواحدي (١١١) .

وقد كان عذر المتقدمين في سياق هذه الروايات : أنهم يذكرونها بأسانيدها معتقدين أنهم بذلك قد برئوا من عهدتها بذكر سندها ، كما قيل : من أسند لك فقد حملك: أي حملك البحث عن رواته ومبلغهم من العدالة والضبط .

وكان العلماء في عصرهم يقدرون على تتبع الأسانيد ونقدها ، ومعرفة حال رجالها . ولهذا لم يكونوا - في أغلب الأحيان - يعقبون عليها بتصحيح أو تضعيف .

ثم جاء من بعدهم فنقل عنهم هذه الأقوال والروايات بعد حذف أسانيدها ، فظنها من ظنها من المتأخرين ثابتة وهي غير ثابتة ، وهذا ما أوقع كثيرا من المعاصرين في الخطأ ، حيث يكتفون بنقل الرواية عن الطبري والزمخشري والنسفي والرازي والخازن وغيرهم . وكأن مجرد هذه النسبة تغنيهم عن البحث في قيمة الروايات ، ومقدار ثبوتها ، ومدى قوة أسانيدها .

وحسبك أن تقرأ ما نقله كثير من هؤلاء المفسرين في قصة زينب بنت جحش وزوجها الأول زيد بن حارثة ، وما جاء في شأنها في سورة الأحزاب ، وعتاب الله لرسوله في هذا الشأن ، وذلك قوله تعالى : « **وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى**

---

(١١١) انظر . التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ج ١ ص ٧٧ - ٨١ والإتقان ج ٢ ص ١٨٩ .

النّاس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً »(١١٢)

فقد جعلت الروايات من سبب نزول هذه الآية قصة حب عاطفى تخيله متخيل أو افتراه مفتر ، زعم أن زينب ظهرت للنبى ﷺ يوماً بعد زواجها من زيد ، فرآها فتعلق قلبه بها ، ورجع وهو يردد : سبحان مقلب القلوب ! . ولكنه كتم هذا الحب . . الخ حتى نزلت الآية .

وهذا الهراء لا دليل فى الآية عليه ، ولم تصح به رواية ، كما لا تسنده دراية ومع هذا تعلق به المستشرقون والمبشرون وجعلوا منه قصة درامية غرامية ، يتخذون منها وسيلة للطعن فى محمد ﷺ ـ وحجتهم أن ذلك منقول فى أمهات كتب التفسير .

وأعجب من ذلك تعلق بعض المعاصرين من المسلمين ، الذين يكتبون فى التفسير أو السيرة ، بهذه الروايات ، بدعوى أنها فى كتب التفسير(١١٣) .

ويرحم الله الإمام الحافظ ابن كثير ، فقد قال عند تفسير الآية المذكورة :

ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف ـ رضى الله عنهم ـ أحببنا أن نضرب عنها صفحاً ، لعدم صحتها ، فلا نوردها . وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضاً حديثاً من رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس رضى الله عنه فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً »(١١٤) .

وقد رد كثير من المعاصرين هذه الروايات ، معتمدين على النقد الداخلى لها ، مثل الدكتور هيكل فى « حياة محمد »(١١٥) والشيخ محمد الغزالى فى « فقه السيرة »(١١٦) .

---

(١١٢) الأحـزاب : ٣٧
(١١٣) مثل الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) فى كتابها « نساء النبى »
(١١٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١ ط الحلبى
(١١٥) ص ١٧٥ ـ ١٨٢ الطبعة الحادية عشـرة
(١١٦) ص ١١٦ ـ ١١٨ ط ثالثة

ومثل ذلك ما يذكره المفسرون عند تفسير قوله تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته** »[117] الآية . . من سورة الحج من قصة « الغرانيق » وهي قصة مرفوضة لا تقوم على ساقين ، ولا يؤيدها نقل صحيح ولا عقل صريح .

وقد قال ابن كثير « قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح »[118] .

ولكن ـ رحمه الله ـ لم يصنع هنا ما صنع في قصة زينب ، حيث ضرب هناك صفحاً عن الروايات الضعيفة ولم يوردها أصلا . أما ههنا فحكم بضعفها ولكنه ذكرها .

ومثل هذه الروايات الضعيفة المتهافتة يفتح لها المستشرقون صدورهم ، ويأخذونها مسلِّمين ؛ لأنها توافق هواهم ، وتخدم فكرتهم ، في حين يردون ـ كثيراً ـ الروايات الصحيحة إذا عارضت اتجاههم .

٤- الحذر من الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة :

ومما ينبغي أن يحذر منه قارىء التفسير : الأقوال الضعيفة بل الفاسدة في بعض الأحيان . وهي أقوال صحيحة النسبة إلى قائليها من جهة الرواية ، ولكنها سقيمة أو مردودة من جهة الدراية . وليس هذا بمستغرب ما دامت صادرة عن غير معصوم . فكل بشر يصيب ويخطىء ، وهو معذور في خطئه ، بل مأجور أجراً واحداً إذا كان بعد تحر واجتهاد ، واستفراغ للوسع في طلب الحق .

وإذا كان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو ترجمان القرآن ، وحبر الأمة قد ثبتت عنه آراء في التفسير اعتبرها جمهور علماء الأمة ضعيفة أو شاذة ، وخالفه فيها عامة الصحابة ، مثل أقواله في المواريث ونحوها ، فكيف بمن دون ابن عباس ومن دون تلاميذه تلاميذه ؟ ! .

---

(١١٧) الحج ٠ ٥٢

(١١٨) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٩ . وقد ألف المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رسالة سماها « نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق » بين فيها بالأدلة العلمية بطلان تلك الحكاية فلتراجع

ولقد رأينا شيخ المفسرين الإمام أبا جعفر بن جرير الطبرى ـ على جلالة قدره ، ومنزلة كتابه فى التفسير ـ يختار أحياناً تأويلات ضعيفة ، بل هى غاية فى لضعف . كتفسيره لقوله تعالى : « **واهجروهن فى المضاجع** »[119] بأن معناها قيدوهن : من هَجَرَ البعيرَ إذا شده بالهِجار ، وهو القيد الذى يقيد به . والمراد : تقييد النساء لإكراههن على ما تمنعن عنه ! ولا عجب إن سمى الزمخشرى هذا التفسير بتفسير الثقلاء . !

وكذلك اختياره لآيات المائدة : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** »[120] « **فأولئك هم الظالمون** »[121] « **فأولئك هم الفاسقون** »[122] أنها فى أهل الكتاب . هذا مع أن الاعتبار بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

وقد ذكرت هذه الآيات عند حذيفة بن اليمان فقال رجل : إن هذا فى بنى إسرائيل ! . فقال : نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوة ، ولهم كل مرة ! يعنى كيف يوصف بنو إسرائيل بالكفر أو الظلم أو الفسق إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم ، ولا توصفون أنتم بذلك إذا لم تحكموا بما أنزل الله عليكم .

والمقصود هو اتقاء الضعيف من الأقوال والتأويلات . مهما تكن مكانة قائلها . وقد قال علىّ كرم الله وجهه : لا تعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله .

***

---

(١١٩) النساء : ٣٤

(١٢٠) المائدة : ٤٤

(١٢١) المائدة : ٤٥

(١٢٢) المائدة : ٤٧

السنة النبوية

والمصدر الثانى للثقافة الدينية للداعية هو : السنة . فهى شارحة القرآن والمبينة له . والمفصلة لما أجمل . وفيها يتمثل التفسير النظرى ، والتطبيق العملى لكتاب الله . قال الله تعالى يخاطب رسوله : « **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** »[1] « **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** »[2] .

وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » .

والسنة تشمل : أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته وأوصافه وسيرته ، فهى سجل حافل لحياته وجهاده عليه الصلاة والسلام فى سبيل دعوته . حوت من جوامع الكلم ، وجواهر الحكم ، وكنوز المعرفة ، وأسرار الدين ، وحقائق الوجود ، ومكارم الأخلاق ، وروائع التشريع ، وخوالد التوجيه ، ودقائق التربية ، وشوامخ المواقف ، وآيات البلاغة ـ ثروة طائلة هائلة ، لا تنفد على كثرة الإنفاق ، ولا تبلى جدتها بكر الغداة ومر العشى .

ولا يستغنى داعية يريد أن يحدث أو يدرس أو يحاضر أو يخطب أو يكتب ، عن الرجوع إلى هذا المصدر الغنى ، والمنهل العذب ، ليستقى منه ـ بقدر ما يتسع واديه ـ فيرتوى ويروى .

وقد صوّر النبى ـ ﷺ ـ ما بعثه الله به من الهدى والعلم ، وموقف الناس من الاستفادة منه ، والإفادة به ، تصويراً بليغاً معبراً . فيما رواه الشيخان عن أبى موسى مرفوعا قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ـ وكان منها إجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها ،

---

(١) النحل : ٤٤ (٢) النحل : ٦٤

وسقوا وزرعوا . . وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلت به » .

والأرض الطيبة التى تقبل الماء فترتوى به ، وتنبت العشب والكلأ ، مثل أهل الفقه والدراية من أهل العلم . والأرض الثانية التى تمسك الماء لينتفع به غيرها مثل أهل الحفظ والرواية من أهل العلم . وأما الأرض السبخة الأخرى فمثل طائفة أهل الجهل والضلال التى لم تنتفع من علم النبوة وهداها بشىء .

وكتب السنة كثيرة جداً ، ولكن ينبغى للداعية أن يقدم ما هو الأهم منها ـ مثل الكتب الستة ، ومسند الدارمى ، وموطأ مالك ، ومسند أحمد .

ولبعض هذه الكتب مختصرات يمكن أن تكفى من لم تسعفه الهمة والوقت بقراءة الأصول ذاتها ، مثل التجريد الصريح للزبيدى ، وهو مختصر للبخارى حذف منه المكررات والمعلقات والأسانيد . وكذلك : مختصر صحيح مسلم للمنذرى بتحقيق الألبانى . وهناك كتب عملت على جمع هذه الكتب أو بعضها مثل : جامع الأصول لابن الأثير جمع فيه أحاديث الأصول الخمسة : الصحيحين وسنن أبى داوود والترمذى والنسائى ، وجعل سادسها موطأ مالك ، بدلاً من سنن ابن ماجه لأن فيه كثيراً من الضعيف . بل فيه أحاديث موضوعة ، ولهذا ود بعض الحفاظ لو كان مسند الدارمى مكانه ـ وذلك بعد حذف المكرر منها ـ .

ومثله : مجمع الزوائد ـ للهيثمى . جمع فيه زوائد مسانيد الإمام أحمد والبزار وأبى يعلى ، ومعاجم الطبرانى الثلاثة ، وهو مطبوع فى عشرة أجزاء ، والمراد زوائد هذه الكتب على الكتب الستة ، على اعتبار ابن ماجه منها .

وقد قام أحد علماء الحديث فى القرن الحادى عشر ـ وهو العلامة : محمد بن محمد بن سليمان (المتوفى بدمشق سنة ١٠٩٤) بجهد مشكور فى الجمع بين كتابى ابن الأثير والهيثمى ، وأضاف إليهما زوائد الدارمى وابن ماجة ، فكان هذا الكتاب بحق موسوعة حديثية جمعت أكثر من عشرة آلاف حديث نبوى من أربعة عشر كتابا . وسمى كتابه « جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد » .

وبجوار هذا اللون من تجميع الأحاديث ، وجد لون آخر ، أو طريقة أخرى وهى التجميع حسب أوائل الحديث ، وفقاً لترتيب الحروف الهجائية .

ومن ذلك ما صنعه الحافظ السيوطى فى كتابيه « الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير » وقد أضاف إليه زيادات ضمها الشيخ النبهانى فى كتاب سماه « الفتح الكبير بزيادة الجامع الصغير » .

والكتاب الآخر هو « الجامع الكبير » الذى حاول أن يجمع فيه كل ما وصل إليه من كتب الحديث . وقد رتبه الشيخ علاء الدين « على المتقى » من علماء الهند ، على الأبواب والموضوعات فى كتابه الذى سماه « كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال » .

وثمت كتب أخرى متخصصة هدفها تجميع نوع معين من الأحاديث كأحاديث الأدعية والأذكار وما يتعلق بها فى مثل كتاب « الأذكار » للإمام النووى وكتاب « الكلم الطيب » لشيخ الإسلام ابن تيمية . وأحاديث الآداب والفضائل وما يتعلق بها مثل كتاب « الأدب المفرد » للبخارى ، وكتاب « شعب الإيمان » للبيهقى وكتاب « رياض الصالحين » للنووى . والأحاديث التى تتضمن الترغيب والتحبيب فى الخير والطاعة ، والترهيب والتخويف من الشر والمعصية ، مثل « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذرى ، أو الأحاديث المتعلقة بالأحكام الفقهية مثل « عمدة الأحكام » للحافظ المقدسى ، ويشمل أحاديث الصحيحين فقط ، و « الإلمام » للإمام ابن دقيق العيد ، و « منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار » للمجد بن تيمية ، و « بلوغ المرام من أدلة الأحكام » للحافظ ابن حجر .

وإلى جانب هذه الأنواع من الكتب توجد كتب الشروح ، وهى كتب جد نافعة ولا يستغنى عنها داعية ، ففيها من الفوائد الحديثية ، والفقهية والأصولية ، واللغوية والأدبية والتاريخية والأخلاقية ، ما لا يزهد فيه ذو عقل ، فهى مفاتيح لمن أراد أن يفتح مغاليق ما أشكل من الأحاديث ، أو بدا تعارضه فى الظاهر . وهى مصابيح تنير الطريق لمن يريد معرفة ما تتضمنه الأحاديث من أحكام وآداب وتشريع وتوجيه . ولا يسع عالماً أن يعرض عن هذه الثروة ويبدأ وحده من جديد ، فهذا مناف لمنطق العلم ، ومنطق العقل ، ومنطق التاريخ .

من هذه الكتب .

(أ) شروح البخارى ، مثل عمدة القارى للعينى . وإرشاد السارى

للقسطلانى وفتح البارى لابن حجر ، وهو الذى قال فيه الشوكانى : لا هجرة بعد الفتح !

(ب) شروح مسلم ، وأبرزها : شرح النووى ، وشرح الأبىّ والسنوسى .

(جـ) شروح أبى داوود . مثل : « معالم السنن » للخطّابى ، و« تهذيب السنن » لابن القيم و« عون المعبود » للديانوى ، و« بُذل المجهود » للسهار نفورى»و « المنهل العذب المورود » لمحمود خطاب السبكى ، ولكنه لم يكمل .

(د) شروح الترمذى ، مثل « عارضة الأحوذى » لابن العربى ، « تحفة الأحوذى » للمباركفورى .

(هـ) شروح النسائى أعنى تعليقات السيوطى والسندى على السنن الصغرى .

(و) شروح الموطأ : مثل « المنتقى » لأبى الوليد الباجى « تنوير الحوالك » للسيوطى و « المسوّى » للدهلوى و « أوجز المسالك » لمحمد زكريا الكاندهلوى .

(ز) شرح المسند فى « الفتح الربانى » لأحمد عبد الرحمن البنا ويتضمن ترتيب وشرح وتخريج المسند ، وكذلك تعليقات أحمد محمد شاكر على الأجزاء التى صدرت من المسند بتحقيقه .

(ح) شرح « مشكاة المصابيح » المسمى « مرقاة المفاتيح » للعلامة على القارى فى خمسة مجلدات و « مرعاة المفاتيح » للمبار كفورى .

(ط) شرح « الجامع الصغير » للعلامة المناوى فى كتابه « فيض القدير » فى ستة مجلدات ، وقد اختصره فى شرح مختصر سماه « التيسير » . وقد طبع فى مجلدين . و « السراج المنير » للعزيزى وقد طبع فى ثلاثة مجلدات .

(ى) شرح « رياض الصالحين » وهو المسمى « دليل الفالحين » فى أربعة مجلدات .

(ك) شروح الأربعين النووية و « الخمسين الرجبية » وأعظم شروحها بلا شك هو شرح ابن رجب الذى سماه « جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم » .

(ل) شروح أحاديث الأحكام مثل : « الإحكام - شرح عمدة الأحكام » لابن دقيق العيد ، وعليه حاشية الصنعانى المسماة « العدة » . . . ومثل : « نيل الأوطار » . - شرح « منتقى الأخبار » للعلامة الشوكانى ، و « سبل السلام » شرح « بلوغ المرام » للصنعانى .

كما ينبغى الاهتمام بكتب « الغريب » وهى التى تعنى بشرح المفردات والجمل الغريبة فى الحديث ، مثل « غريب الحديث » لأبى عبيد ، و « الفائق فى غريب الحديث » للزمخشرى ، و « النهاية فى غريب الحديث والأثر » لابن الأثير ، وهو موسوعة جليلة و « مشارق الأنوار » للقاضى عياض .

* * *

● **تنبيهات للداعية فى مجال السنة :**

وأود أن أنبه هنا إخوانى الدعاة وأبنائى طلاب الدعوة إلى عدة أمور أراها مهمة لهم فى مجال دراسة السنة .

(أ) الاهتمام بالسيرة النبوية .

أول هذه التنبيهات أن يوجهوا عناية خاصة للجزء العملى من السنة ، وهو الذى يتعلق بسيرة النبى ﷺ ، ويسجل مواقفه من شتى الأمور ، وهديه فى جميع شئون الدين والدنيا .

ففى هذه الناحية العملية من سنته - ﷺ - نجد الإسلام مجسماً فى حياة بشر ، ونجد القرآن حياً مشخصاً يسعى على قدمين ، ولما سئلت عائشة عن خلقه عليه الصلاة والسلام قالت : كان خلقه القرآن ، أى أنه ﷺ كان نموذجا حياً للفضائل والأخلاق التى دعا إليها القرآن .

فإذا كان الإسلام يدعو إلى العدل - ويجعله إحدى قيمه العليا ، ومبادئه الأساسية ويقاوم الظلم بكل صوره ، فإن حياة النبى ﷺ وسيرته مثال ناطق لتحقيق العدل فى جميع المجالات : العدل مع النفس ، والعدل مع الأسرة ، والعدل مع الأقارب ، والعدل مع الأصدقاء ، والعدل مع الأعداء ، وهكذا كل ما يمكن من صور العدل ومظاهره . والأمثلة التطبيقية لهذه الأنواع من العدل موفورة فى سيرته - ﷺ - لا يعجز الداعية عن استخراجها من كتب الحديث والسيرة .

وإذا كان الإسلام يدعو إلى الشورى ، بوصفها أساسا من أسس الحياة الاجتماعية والسياسية فى الإسلام ، فإن سيرة النبى ﷺ هى وسيلة الإيضاح لتطبيق هذا المبدأ الجليل ، كما يلمس ذلك الدارس لغزوات مثل بدر وأحد وخيبر وغيرها . وإذا كان الإسلام يدعو إلى فضائل خلقية معينة ، مثل : الصدق ،

والأمانة ، والوفاء ، والصبر ، والسخاء ، والشجاعة ، والرحمة ، وغيرها ، فإن سيرة النبى ﷺ هى التطبيق الرائع لهذه الأخلاق .

وهكذا كل المبادىء والمعانى والقيم التى جاء بها الإسلام تتجلى فى حياته عليه الصلاة والسلام . ولهذا ينبغى للداعية الموفق ـ بعد أن يذكر موضوعه معززاً بالآيات والأحاديث النظرية ـ أن يؤيدها بمواقف من السيرة العملية .

فمن كان يتحدث عن خلق التواضع ، مثلا ، فلا يحسن به أن يكتفى بسرد الآيات والأحاديث فى فضله ، حتى يذكر تواضعه ﷺ فى أهله وفى أصحابه فقد كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويطحن بالرحا مع الجارية والغلام .

ويجلس مع صحابته كواحد منهم ، حتى يأتى الغريب فلا يعرفه من بينهم ، ولا يميز نفسه عنهم فى حضر أو سفر ، حتى اختار مرة أن تكون مهمته جمع الحطب لإنضاج الطعام لهم . وأبى فى غزوة بدر أن يركب وصاحباه يمشيان ـ وقد عرضا عليه ذلك راضيين ـ قائلا : ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر !

ولعل من النافع هنا أن أذكر الإخوة الدعاة بأن للسيرة مصادر شتى غير كتب السيرة الرسمية المعروفة مثل : سيرة ابن هشام ، وشرحها للسهيلى المسمى « الروض الأنف » ، وامتاع الأسماع للمقريزى ، أو السيرة الحلبية ونحوها . فلابد من الانتفاع بتلك المصادر كلها ما أمكن ذلك .

من هذه المصادر :

(١) القرآن الكريم وتفاسيره وبخاصة المأثور منها .

(٢) كتب الحديث ، فهى كما تتضمن أقوال النبى ﷺ تتضمن أفعاله وتقريراته وأوصافه الخَلقية والخُلقية ، ومن ذلك مراحل دعوته وجهاده وغزواته ومواقفه وهى سجل حافل لحياته كلها .

(٣) كتب الشمائل والهدى النبوى مثل « الشمائل المحمدية » للترمذى وقد شرحه أكثر من واحد . و « زاد المعاد فى هدى خير العباد » لابن القيم .

(٤) كتب التاريخ العام مثل : تواريخ الطبرى وابن الأثير وابن كثير ، ففى كل منها فصول ضافية عن السيرة النبوية ، ولا سيما ابن كثير ، وقد فصلت السيرة

من تاريخه وطبعت محققة مستقلة .

(٥) كتب دلائل النبوة ، وهى التى تعنى بما ظهر على يديه ﷺ من الآيات والخوارق ، وما نبأ به من الغيوب .. الخ .

* * *

(ب) جمع الأحاديث فى الموضوع الواحد وتصنيفها :

وما نبهنا عليه فى شأن القرآن من العناية بجمع الآيات فى الموضوع الواحد ، ومحاولة تصنيفها وتقسيمها على أجزائه وعناصره ، ننبه عليه هنا فيما يتعلق بالأحاديث أيضاً .

فعلى الداعية أن يستحضر الأحاديث المتصلة بموضوعه من مظانها من دواوين السنة المختلفة ، وبخاصة ما كان منها مرتباً على الأبواب ، مثل الكتب الستة ، والموطأ ، ومسند الدارمى ، وسنن البيهقى ، والمستدرك ، ومجمع الزوائد وغيرها ، وكذلك مثل رياض الصالحين والترغيب والترهيب ونحوها .. مع الحذر من الأحاديث الموضوعة والواهية ، كما سنفصل ذلك بعد .

وبعد الجمع والاستحضار ـ تبدأ عملية التصنيف والترتيب ، وهذه تحتاج إلى وعى وحسن إدراك ، فليس المطلوب هو مجرد سرد الأحاديث الواردة فى الموضوعات تباعاً ، وإنما المطلوب الاستشهاد بها على كل عنصر من عناصر الموضوع ما أمكن ذلك .

هب أنك تريد أن تبين موقف السنة من « العلم » الذى يلهج به الناس فى عصرنا ويقولون : إنه الأساس الأول لأى حضارة شامخة الذرا . وأردت أن تستشهد على مكانة هذا العلم فى السنة . كما استشهدت من قبل على مكانته فى القرآن ، فهنا ـ بعد أن جمعنا الأحاديث جُلنا فى رحاب السنة ـ نستطيع أن نصنفها فى ضوء هذه العناصر :

(١) الحث على طلب كل علم نافع ، والترغيب فى التعلم والتعليم . وفى ذلك أحاديث كثيرة معروفة فى مظانها لا تخفى على طالب العلم .

(٢) محاربة الأمية بكل وسيلة مستطاعة حتى إنه ـ ﷺ ـ كان يفدى الأسير من قريش فى غزوة بدر إذا علَّم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة .

(٣) الحث على تعلم اللغات ، كما أمر بذلك زيد بن ثابت كاتب الوحى

(٤) استخدام أسلوب الإحصاء ، كما روى البخارى ومسلم عنه أنه طلب إحصاء بعدد المسلمين بعد الهجرة فأحصوا له ، فكانوا ألفاً وخمسمائة .

(٥) اقتباس أىّ علم يفيد الإسلام وأهله ولو كان من عند غير المسلمين ، كما رأينا فى الاستفادة من أسرى بدر المشركين . . ويستأنس لذلك بحديث الترمذى وابن ماجه : « الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها » وإن كان سنده ضعيفا .

(٦) الخضوع لمنطق الملاحظة والتجربة فى أمور الدنيا ، كما ظهر ذلك فى موقفه من تأبير النخل ، حيث أشار على أصحابه برأى . فأخذوا به ظانين أنه من أمر الدين والوحى ، فنبههم على أنه كان ظناً منه ، ولم يكن وحياً من الله ، قائلاً لهم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[٣] .

(٧) النزول عند رأى الخبراء ، وأهل المعرفة ، كنزوله على رأى الحباب ابن المنذر فى معركة بدر ، وعلى رأى سلمان فى حفر الخندق .

(٨) الحملة على الدجل والخرافة ، والتحذير من الدجالين والمخرفين مثل الكهان والعرافين والمنجمين والسحرة وأمثالهم ، رعاية لسنة الله فى الخلق ، واحتراماً لشبكة الأسباب والمسببات وفى ذلك أحاديث جمة .

* * *

● قيمة النية فى الإسلام :

ونزيد الأمور وضوحاً بمثال آخر ، حول « النية فى الإسلام » فإذا أردت أن تلقى الضوء على هذا الموضوع من خلال الأحاديث الشريفة ، بالإضافة إلى الآيات الكريمة ، يمكننا أن نعرض عناصره كما يلى :

١ ـ الإسلام يجعل النية معيار العمل ، ويهتم بالقلوب لا بالمظهر ، وبالباعث لا بالصورة ـ على عكس ما يفترى المبشرون ـ اقرأ « **وجاء بقلب منيب** »[٤] « **بقلب سليم** »[٥] « **ليس البر أن تولوا وجوهكم** »[٦] « **لن ينال الله لحومها** »[٧] وفى السنة « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم . . ـ إنما الأعمال بالنيات ـ وإنما لكل امرىء ما نوى » انظر قيمة هذا الحديث عند العلماء .

---

(٣) رواه مسلم
(٤) سورة ق . ٣٣
(٥) الشعراء : ٨٩ ، الصافات : ٨٤
(٦) البقرة : ١٧٧
(٧) الحج : ٣٧

٢ ـ النية الصالحة تجعل العادة عبادة ، والمباح طاعة ، بل التشهوة قربة . وفى ذلك جملة أحاديث : « حتى فى اللقمة يضعها فى فم امرأته ـ وفى بُضْع أحدكم صدقة ـ الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان » . . الخ[٨] .

٣ ـ النية المدخولة تحبط الطاعات والقربات كالهجرة والجهاد والإنفاق . . الخ « مهاجر أم قيس ـ من غزا فى سبيل الله وهو لم بنو إلا عقالا فله ما نوى[٩] . حديث الثلاثة المرائين : القارىء والمنفق والمجاهد ، أول من تسعر بهم النار يوم القيامة . »

٤ ـ صدق النية وحده موجب للمثوبة :

(أ) فيثاب المرء على عمل نواه وإن لم يتمه « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »[١٠]

(ب) ويثاب المرء على عمل نواه وقع خطأ ، كما فى حديث : « لك ما نويت يا يزيد ، ولك ما أخذت يا معن »[١١] .

(جـ) ويثاب المرء على عمل نواه وإن لم يعمله أصلا ، وقد ورد ذلك فى أمور شتى .

. . فى الجهاد : « إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا ، حبسهم العذر »[١٢] .

. . فى الشهادة : « من سأل الله الشهادة بصدق . بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »[١٣] .

. . فى قيام الليل : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »[١٤] .

. . فى الإنفاق : « إنما الدنيا لأربعة نفر . . . الخ الحديث الذى جعل المنفق فى الخير والمتمنى بقلبه لمثل عمله فى الأجر سواء »[١٥]

. وبإزاء هذا . العقوبة على نية الشر والمعصية « إذا التقى المسلمان بسيفيهما .

---

(٨) الترغيب والترهيب ـ كتاب الجهاد

(٩) رواه النسائى

(١٠) النساء : ١٠٠

(١١) رواه البخارى

(١٢) رواه البخارى

(١٣) رواه مسلم

(١٤) رواه البخارى وأحمد

(١٥) رواه أحمد والترمذى وصححه

فالقاتل والمقتول فى النار » - والحديث السابق الذى جعل المنفق ماله فى الشر ومعصية الله والمتمنى لعمله بقلبه ونيته مستويين كما قال فى الحديث : « فهما فى الوزر سواء » .

٥ - بركة النية الصالحة :

(أ) معونة الله « من أدان أموال الناس وهو يريد أداءها أدى الله عنه »(١٦) « **إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم** »(١٧) الآية من سورة التوبة .

(ب) نجاح العمل كما يشير إليه قوله تعالى : « **إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما** »(١٨) الآية من سورة النساء.كما يؤيده حديث المتصدق على السارق والزانية والغنى حيث أتى فى المنام فقيل له : « أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما صدقتك على زانية فلعلها تستعف عن زناها ، وأما صدقتك على غنى فلعله يعتبر فينفق مما آتاه الله »(١٩) .

٦ - لا تأثير للنية فى أمرين :

أولا - المعاصى والمحرمات ، فحسن النية لا يجعلها طاعة ولا حلالاً ، كمن أكل الربا ليبنى مسجداً « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً »(٢٠) فالإسلام يريد شرف الغاية والوسيلة معاً ، ولا يقبل أن تصل إلى الحق بطريق الباطل .

ثانيا - العبادات والقربات التى لم يشرعها الله ، فليس لأحد أن يخترع أو يضيف شيئاً يتعبد به ، وإن قصد الثواب ، ونوى القربة إلى الله ، وهذا أصل يهدم كل ابتداع فى الدين ولهذا جاء فى الحديث الصحيح المشهور : « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد »(٢١)

* * *

(١٦) رواه البخارى

(١٧) الانفال : ٧٠

(١٨) النساء : ٣٥

(١٩) رواه البخارى

(٢٠) رواه مسلم

(٢١) انظر فى موضوع الابتداع فى العبادة كتاب : « العبادة فى الاسلام » فصل « لا يعبد الله إلا بما شرع » .

(جـ) الحذر من وضع الأحاديث فى غير موضعها :

وعلى الداعية كذلك أن يحذر من سوء الفهم ، للأحاديث الصحاح والحسان ، التى وردت بها كتب السنة ، وتلقاها علماء الأمة بالقبول ، فحرفها بعض الناس عن مواضعها ، وتأولوها على غير تأويلها ، وبعدوا بها عما أراد الله ورسوله .

من ذلك أحاديث لوت بعض الفرق أعنتها ، لتؤيد بها مذاهبها ، وتعضد بها أفكارها فاتخذوا المذاهب أصلاً ، وجعلوا النصوص لها تبعا ، صنعوا ذلك مع القرآن - وصنعوا ذلك مع السنة ، وقلما سلمت فرقة من الوقوع فى هذه الورطة إلا من عصم ربك من أهل السنة وأتباع السلف .

وما وقع فيه القدماء سقط فى مثله المحدثون ، فرأينا بعض الناس يتخذ من الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى قصة تأبير النخل - وهو قوله عليه السلام « أنتم أعلم بأمر دنياكم » - مستندا لعزل التشريع الإسلامى فى المجالات الاقتصادية والسياسية ونحوها ، بزعم أن الرسول ﷺ فوض لنا تنظيم أمر دنيانا ، وشئون حياتنا بهذا الحديث .

والحديث إنما يقصد بأمر دنيانا : الشئون الفنية المتعلقة بالوسائل والكيفيات ، مثل شئون الزراعة والصناعة ونحوها ، مما ترك لعقول الناس واجتهادهم ، وإلا ما أنزل الله أطول آية فى كتابه لتنظيم شأن دنيوى وهو كتابة الدين . وما جاءت مئات النصوص وآلافها من الآيات والأحاديث تنظم علاقات الناس فى حياتهم الدنيا من بيع وشراء وإجارة ورهن . . الخ .

ومن ذلك الأحاديث التى وردت فيما سماه العلماء « الفتن » وفساد آخر الزمان فبعضهم يفهم منها - أو يضعها موضعا يفهم منها - أن الشر قد عم ، وأن سيل الفساد قد طم ، وأن لا سبيل إلى الخلاص ، ولا أمل فى إصلاح ، وأن الأمور لابد أن تسير من سيء إلى أسوأ ، ومن أسوأ إلى الأسوأ ، إلى أن تقوم الساعة . وطالما سمعت بعض المرشدين الدينيين يجمعون أحاديث الفتن وأشراط الساعة ، وما شابهها فى نسق يوحى باليأس من أى عمل ، ونفض اليد من كل محاولة للعلاج أو الإصلاح أو التصدى للفساد ، وهذا ما رسخ فى أذهان كثير من العامة ، بل بعض الخاصة . فإذا دعوتهم للإسهام فى عمل جماعى إيجابى تؤدى به

الجماعة فرض الكفاية الواجب عليها ، وتسقط به الإثم والحرج عنها ، شهروا فى وجهك هذه الأحاديث !

ولعل أقرب مثل يذكر هنا حديث : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » وهو حديث صحيح رواه مسلم وغيره . فمن الناس من يتخذ من هذا الحديث سنداً وحجة له فى القعود عن واجب الدعوة إلى الإسلام وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويعارض به كل دعوة جادة لاستعادة حكم القرآن ، وإقامة دولة الإسلام

فهل يُتصور أن الرسول الكريم قال هذا الحديث ، ليثبط عزائم أمته عن الدعوة والعمل لدينهم ، وليطفىء جمرة الأمل فى قلوبهم ؟

لا ، ثم لا . إنما أراد أن يحذرهم لينتبهوا ، أو ينبههم ليحذروا . . إنه بمثابة إشعال الضوء الأحمر علامة على الخطر ، حتى يتفادى السائرون السقوط فى الحفر أو الاصطدام بالغير .

ولم يرد الحديث أبداً أن يغلق باب الأمل ، أو طريق العمل ، على أهل الخير . كيف ! وقد قال فى آخر الحديث « فطوبى للغرباء » وفى بعض روايات الحديث عند غير مسلم : قيل ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدى من سنتى »[٢٢] .

ففى هذا دعوة صريحة إلى إصلاح ما أفسد الناس من منهج النبوة ، والعمل الجاد لرد الشاردين إلى الطريق المستقيم .

وفى حديث آخر : قيل : ومنْ الغرباء ؟ قال : النزّاع من القبائل . أى الذين نزعوا عن أهليهم وعشيرتهم ، وهاجروا بأبدانهم ، أو بعقولهم وقلوبهم فى سبيل الاسلام .

وفى حديث غيره قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال · « ناس صالحون قليل فى ناس كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » .

هؤلاء الغرباء إذن ليسوا طائفة مترهبة منعزلة ، بل هم طائفة قائمون على الحق ، يؤدون دور الصحابة فى بدء نشأة الإسلام ، فقد كانوا غرباء ولم تنتهم

(٢٢) رواه الترمـــذى

غربتهم عن الدعوة والجهاد ، وإن كان من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم .

فالمقصود إذن بمثل هذا الحديث هو التنويه بالغرباء ، الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ويصلحون ما أفسد الناس ، وحث كل مسلم أن يكون واحداً من هؤلاء ، أو ـ على الأقل ـ يكون عوناً لهم ، إن لم يكن منهم ، فالحديث دعوة إلى البناء والإيجابية ، وليس إلى اليأس أو الفرار من الميدان ، بدعوى فساد الزمان .

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا !

ومن الأحاديث التى تذكر هنا ما رواه أحمد وأبو داوود عن ثوبان عن النبى ﷺ قال : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

فالرسول عليه السلام حين ينبه الأمة فى هذا الحديث إلى المؤامرات الدولية التى تحاك لها فى المستقبل ، والتى كشف الله له الحجب عنها ، فأخبر عنها كأنه يراها رأى العين ، وكأنه معنا يعايشها ـ لم يقصد بذلك تيئيس الأمة من مقاومة كيد أعدائها ، بل أراد أن يلفتها إلى مؤامرات خصومها فى الخارج وتكالبهم عليها ، لتلتفت هى إلى نفسها فى الداخل ، وإلى عوامل الضعف التى تنخر فى كيانها المعنوى ، رغم كثرتها العددية ، حتى تحاول التغلب عليها . فإن أول مراحل العلاج أن تعرف أسباب المرض .

على أن هناك أمراً يجب أن ننبه عليه دارس السنة فى مواجهة أحاديث الفتن ونحوها ، وهو أن نرفع نحن فى وجه المثبطين ـ الذين يضعون الأحاديث فى غير موضعها ـ الأحاديث المبشرات ، التى تنير القلوب بأشعة الأمل ، وقوة الرجاء ، فى غد الإسلام ، ومستقبل المسلمين. ومن ذلك :

١ ـ ما رواه ابن حبان فى صحيحه : « ليبلغن هذاالأمر (يعنى هذا الدين) ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر » .

٢ ـ ما رواه أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذى وابن ماجه من حديث ثوبان

مرفوعاً : « إن الله زوى لى الأرض (أى جمعها وضمها) فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها . . » .

٣ ـ ما رواه أحمد والدارمى وابن أبى شيبة والحاكم وصححه[٢٣] عن أبى قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل : أى المدينتين تفتح أولاً ، القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً ، قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أى المدينتين تفتح أولا ، القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولا ! يعنى القسطنطينية . » ورومية هى « روما » عاصمة إيطاليا ، وهكذا كانت تلفظ كما فى معجم البلدان وقد فتحت الأولى وبقيت الثانية . ولن يتخلف ما بشر به الصادق المصدوق .

٤ ـ ما رواه أبو داوود والحاكم وصححه والبيهقى فى المعرفة عن أبى هريرة مرفوعاً : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » قال الحافظ العراقى وغيره : سنده صحيح ، ولذا رمز السيوطى لصحته فى الجامع الصغير .

٥ ـ ما رواه أحمد والترمذى عن أنس ، وأحمد عن عمار بن ياسر ، وعبدالرازق عن على ، والطبرانى عن عبدالله بن عمرو ـ بإسناد حسن ـ مرفوعاً « مثل أمتى مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره » أى كما أن لكل نوبة من نوبات المطر فائدتها فى النماء ، كذلك كل جيل من أجيال الأمة له خاصية توجب خيريته .

٦ ـ ما رواه أحمد والبزار عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ـ ما شاء الله أن تكون ، تم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ـ وفى رواية : عضوضاً : ـ يعنى : فيه عض وظلم ـ فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ـ ملك فيه قهر وجبروت ـ فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون

---

(٢٣) ووافقه الذهبى ، وحسن المقدسى إسناده فى « كتاب العلم » وذكره الألبانى فى الأحاديث الصحيحة أيضاً

خلافة على منهاج النبوة » . ثم سكت[٢٤] وقد تحقق جل ما أخبر به النبى ﷺ فى الحديث من الخلافة الراشدة ، والملك العضوض ، والملك الجبرى ، وبقيت الخلافة المنشودة الموعود بها ، وهى الخلافة على منهاج النبوة ، التى لم تتحقق بعد ، ولابد أن تتحقق إن شاء الله ، ولكن يجب أن نعمل لتحقيقها وإيجادها، وإنما توجد وفقاً لسنن الله بعمل العاملين ، وجهود المؤمنين .

وثمت أحاديث أخرى كثيرة منها :

٧ - « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون للناس »[٢٥]

٨ - « لن يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة »[٢٦] .

٩ - « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال »[٢٧]

١٠- « ليدركن المسيح أقواماً إنهم لمثلكم أو خير - ثلاثاً - ولن يخزى الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها »[٢٨] .

١١- « بشر هذه الأمة بالسناء والدين ، والرفعة والنصر ، والتمكين فى الأرض »[٢٩] .

١٢- « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل زكاة ماله ، فلا يجد أحداً يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً »[٣٠] .

١٣- « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، فيختبىء اليهودى وراء الحجر ، فيقول الحجر : يا عبد الله - أو يا مسلم - هذا يهودى ورائى فاقتله »[٣١] .

---

(٢٤) رواه أحمد والبزار بأتم منه والطبرانى ببعضه فى الأوسط من حديث حذيفة بن اليمان ، قال فى مجمع الزوائد : ورجاله ثقات . وذكره الألبانى فى الأحاديث الصحيحة .

(٢٥) رواه أحمد والبخارى .

(٢٦) رواه مسلم .

(٢٧) رواه أبو داوود.

(٢٨) رواه ابن أبى شيبة .

(٢٩) رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى.

(٣٠) رواه مسلم .

(٣١) رواه البخارى .

١٤ـ « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً منى . يملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً »[٣٢] .

وبعد هذه الأحاديث كلها لا يستطيع قاعد أن يتعلل بحديث أو أكثر جاء فى مناسبة خاصة .

* * *

● مقاومة حملة التشكيك فى الأحاديث الصحاح :

كما يجب على الداعية أن يكون واعياً لحملات التشكيك التى شنها خصوم الإسلام من مبشرين ومستشرقين وملحدين على الحديث والسنة . والتى أثرت ـ للأسف ـ فى بعض من ينتمون إلى الإسلام بأسمائهم وأنسابهم بمن عمل الغزو الفكرى عمله فى رؤوسهم ، حتى رأينا منهم من يطعن فى كرام الصحابة ، ومن يشكك فى دواوين السنة الأصلية ، حتى صحيح البخارى نفسه ، ومن يرد الأحاديث الصحاح المشهورة اتباعاً للهوى . ومن يفسر الأحاديث على مزاجه هو ليتخذ من ذلك وسيلة للطعن عليها ، والتشهير بها ، ومن يردد شبهات المستشرقين ترديد الببغاوات وهو لا يدرى ، ومن يرددها وهو يعلم ويدرى .

ولقد صادف هذا الغزو التبشيرى الاستشراقى فراغاً ثقافياً ، وتخلفاً فكرياً بالنسبة للإسلام ومصادره وثقافته ـ فتمكن وعشعش وفرخ . وتطاول الجهل بعنقه ورأسه ليفرض نفسه على الأحاديث المتفق عليها ، المتلقاة بالقبول من الأمة ، ليردها بجرأة وقحة .

حتى زعم بعضهم أن حديث « بنى الإسلام على خمس » وهو من المعلوم فى السنة بالضرورة ـ حيث يحفظه الخاص والعام ، والصغير والكبير ، والرجل والمرأة ـ زعم هذا أنه من وضع المستعمرين (كذا) ولماذا ؟ لأنه لم يذكر الجهاد !

ورد بعض آخر حديث « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، فيختبىء اليهودى وراء الحجر . فيقول الحجر : يا عبد الله ـ أو يا مسلم ، هذا يهودى ورائى . فتعال فاقتله » ـ وزعم هذا أن هذا الحديث يخذر المسلمين لأنه يدفعهم إلى الانتظار حتى يتكلم الحجر ليدل على اليهود . ونسى هذا أن كلام الحجر ليس بلازم أن يكون بلسان المقال ، بل ربما كان بلسان الحال ، ومعناه : أن كل ما فى

---

(٣٢) رواه أبو داوود

الكون سيكون فى صالح المسلمين يومئذ ، بشرط أن يدخل كل منهم المعركة تحت راية الإسلام والعبودية لله ، بحيث ينادى يا عبد الله أو يا مسلم ! .

ورد ثالث حديث إلانة النبى القول وإظهار البشاشة لبعض الجفاة السفهاء مع قوله فيه قبل أن يلقاه : بئس أخو العشيرة . وإنما رده لظنه أن هذا من المداهنة أو النفاق ، ناسياً أن هناك فرقاً بعيداً بعيداً بين المداراة التى لا يستغنى عنها حكيم ، وبين المداهنة التى لا يلجأ إليها إلا منافق أو ضعيف . فالمداراة أن تبذل دنياك لمصلحة دينك ، والمداهنة أن تبذل دينك لمصلحة دنياك .

ومن الكتب التى يستفاد منها فى رد الحملة الاستشراقية التبشيرية على السنة وكشف زيفها ، وفضح عوراها :

١ ـ السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى د . مصطفى السباعى .
٢ ـ السنة قبل التدوين د .. عجاج الخطيب .
٣ ـ الأنوار الكاشفة (فى الرد على كتاب أبى رية) عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى .
٤ ـ الحديث والمحدثون د . محمد أبو زهو
٥ ـ دفاع عن أبى هريرة . د . عجاج الخطيب .
٦ ـ دراسات فى الحديث النبوى (باللغة الانجليزية) د . محمد مصطفى الأعظمى .
٧ ـ دفاع عن السنة . د . محمد أبو شهبة .

***

● **تجنب الأحاديث المشكلة على جمهور الناس لغير ضرورة :**

أن يتجنب الأحاديث التى تشكل على جمهور الناس ، ولا تسيغها عقولهم وثقافتهم لأن لها تفسيرات وتأويلات قد لا يهضمونها ، وربما كانت أعلى من مستواهم ، أو تغص بها حلوق بعضهم ، مثل : حديث الذباب ، أو حديث سجود الشمس كل يوم تحت العرش أو ما شابه ذلك من الأحاديث .

فليس من فقه الداعية أن يتلو على مسامع الناس هذه الأحاديث ، بغير ضرورة ، تقتضيها ، ولا مناسبة توجبها ـ بل الداعية الفقيه هو الذى يعنى بالأحاديث التى لها صلة بواقع الناس ، ويتحرى البعد عن المتشابهات والمشكلات وما لا تبلغه عقول أوساط الناس .

قال الإمام النووى فى « التقريب » وهو يتحدث عن آداب المحدث مع تلاميذه فى درس الحديث : وليجتنب ما لا تحتمله عقولهم وما لا يفهمونه .

وقال الإمام السيوطى فى شرحه « التدريب على التقريب » كأحاديث الصفات ، لما لا يؤمن عليهم من الخطأ والوهم والوقوع فى التشبيه والتجسيم(٣٣) .

فقد قال على : أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله ؟ ! حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون .

وروى البيهقى فى الشعب عن المقدام بن معدى كرب عن رسول الله ﷺ قال : إذا حدثتم الناس عن ربهم ، فلا تحدثوهم بما يغرب أو يشق عليهم قال ابن مسعود : « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة »(٣٤) .

قال الخطيب : ويجتنب أيضاً فى روايته للعوام أحاديث الرخص ، وما شجر بين الصحابة والإسرائيليات . وهذا مع البعد الشاسع بين طلاب الحديث فى زمنهم وعموم الناس فى زمننا .

وقد نختلف مع السيوطى أو الخطيب فى بعض ما مثل به ، ولكن المبدأ مسلم فى ذاته وهو انتقاء ما يحدث به جمهور الناس ، فليس كل ما يُعرف يقال . وليس كل ما يقال لشخص يقال لغيره ، وليس كل ما يقال فى بيئة يصلح أن يقال فى غيرها ، وليس كل ما يصلح قوله فى زمن يصلح فى كل زمن ، بل يجب أن يراعى الداعية ـ كما يراعى المفتى بل أولى ـ تغير المكان والزمان والحال .

وحسبنا فى هذا الحديث الصحيح : « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع »(٣٥) وجاء عن الإمام مالك أنه قال : « اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع ، ولا يكون إماماً وهو يحدث بكل ما سمع » .

---

(٣٣) مراد السيوطى ـ فيما أحسب ـ ألا تجمع الأحاديث المتفرقة فى الصفات ، وتكرر على أسماع عوام الناس بمناسبة وبغير مناسبة . فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقلها مجتمعة ، ولم يذكرها الا بمناسبتها .

(٣٤) رواه مسلم .

(٣٥) رواه مسلم وغيره من حديث أبى هريرة

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : حفظت من رسول الله ـ ﷺ دعاءين :
« فأما أحدهما فبثثته فيكم ،وأما الاخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم » !

وحدث النبى ﷺ ـ حديثاً لمعاذ بن جبل وهو رديف له على ظهر حمار ، عن حق الله على العباد ، وحق العباد على الله ـ فقال له معاذ فى اخره : أفلا أبشر الناس ؟ ! قال : لا تبشرهم فيتكلوا ، ولم يخبر معاذ بهذا الحديث إلا عند موته ، تأثماً ـ أى تحرجاً من كتمان هذا الحديث عن كل الناس ، فيسوت بموته . والحديث فى البخارى .

* * *

● الحذر من الأحاديث الموضوعة والواهية :

كما يجب على الداعية أن يحذر من الأحاديث الواهية والمنكرة ، بل الموضوعة .

وقد حذر علماء السنة من رواية الحديث الموضوع ، إلا مع التنبيه عليه ، وبيان أنه موضوع ليحذر منه قارئه أو سامعه ، قال النووى : تحرم روايته مع العلم به فى أى معنى كان ـ سواء الأحكام والقصص والترغيب وغيرها ـ إلا مبيناً ، أى مقروناً ببيان وضعه ، وذلك لما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن سمرة بن جندب مرفوعاً : « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » .

وقد تخصص لهذه الأحاديث من علماء الأمة من كشف عوارها ، ووضح باطلها ، وفضح عورات الوضاعين والمزيفين ، وقد قيل للإمام عبد الله بن المبارك : هذه الأحاديث الموضوعة ! فقال: تعيش لها الجهابذة

وقال الإمام أبو الفرج بن الجوزى :

« لما لم يمكن أحد أن يدخل فى القران ما ليس منه ، أخذ أقوام يزيدون فى حديث رسول الله ، ويضعون عليه ما لم يقل ، فأنشأ الله علماء يذبون عن النقل ، ويوضحون الصحيح ، ويفضحون القبيح ، وما يخلى الله منهم عصرا من الأعصار . غير أن هذا الضرب قد قل فى هذا الزمان ، فصار أعز من عنقاء مغرب !

وقد كانوا إذا عدوا قليلا ... فقد صاروا أعز من القليل

هذا كلام ابن الجوزى وقد توفى فى أواخر القرن السادس سنة ٥٩٧هـ ، فماذا يقول لو أنه عاش حتى شاهد عصرنا ؟ ! .

على أية حال لا ريب أن الأحاديث الواهية والموضوعة قد كدرت صفاء الثقافة الإسلامية ، ودخلت كثيراً من فروعها ، وتسللت إلى كثير من الكتب ، فى مختلف الفنون من التفسير والتصوف والرقائق ، حتى كتب الفقه والأحكام ، وكثير من كتب الحديث نفسها . ومن ثم دخلت على كثير من الدعاة ـ وبخاصة ذوو الطابع الشعبى منهم ـ آفة الاستشهاد بهذا النوع من الأحاديث ، لما فيها من الغرائب والمبالغات التى ترضى أذواق العوام ، وتستل إعجابهم . وقلما أسمع خطيباً من خطباء الجمع ، أو مدرساً يدرس فى مسجد ، أو محدثاً يحدث فى الإذاعة ، إلا يروى حديثاً أو أكثر من هذه الأحاديث المردودة . . بل كثيراً ما أقرأ فيما تكتبه بعض المجلات ، بل فيما تحويه بطون بعض الكتب العصرية ، أحاديث تخالف العقول ، أو تباين النقول ، أو تناقض الأصول . وإذا لم تكن الأحاديث موضوعة ، وجدتها واهية واهنة كبيت العنكبوت .

وكثيراً ما يستند هؤلاء إلى ما اشتهر من أن الحديث الضعيف تجوز روايته فى فضائل الأعمال والقصص والترغيب والترهيب ونحو ذلك .

ونحب أن ننبه هنا إلى عدة أمور :

الأول ـ أن هذا الرأى غير متفق عليه ، فهناك من الأئمة المعتبرين من رفض الأخذ بالضعيف فى كل مجال ، سواء فضائل الأعمال وغيرها . وهو مذهب يحيى ابن معين ، وجماعة من الأئمة ، والظاهر أنه مذهب البخارى الذى دقق أبلغ التدقيق فى شرائط قبول الحديث ، ومسلم الذى شنع فى مقدمة صحيحه على رواة الأحاديث الضعيفة والمنكرة ، وتركهم الأخبار الصحيحة . وهو الذى مال إليه القاضى أبو بكر بن العربى رأس المالكية فى عصره ، وأبو شامة رأس الشافعية فى عصره أيضاً ـ وهو مذهب ابن حزم وغيره .

الثانى ـ أنه إذا وجد فى الصحيح والحسن ما يتضمن المعنى المراد تعليمه أو التذكير به ، فلا معنى للجوء إلى الضعيف والواهى ، فقد أغنى الله بالجيد عن الردىء ، وقلما يوجد معنى دينى أو خلقى أو توجيهى لا يوجد فى الصحاح والحسان ما يوفيه . ولكن قصور الهمم ، وضيق العطن ، وأخذ أى شىء يجىء

في اليد ، دون معاناة البحث والمراجعة ، جعل الناس يستسهلون رواية الضعيف بإطلاق .

الثالث ـ أن الحديث الضعيف لا يجوز أن يضاف إلى النبي ﷺ بصيغة الجزم ، قال في التقريب وشرحه : وإذا أردت رواية الضعيف بغير إسناد ، فلا تقل : قال رسول الله ﷺ : كذا ، وما أشبهه من صيغ الجزم ، بل قل : رُوِي عنه كذا ، أو بلغنا عنه كذا ، أو ورد عنه ، أو جاء ، أو نُقِل عنه ، وما أشبهه من صيغ التمريض ، كروى بعضهم . فما اعتاده كثير من الخطباء والوعاظ بتصدير الأحاديث الضعيفة بقولهم : قال رسول الله ـ أمر مردود .

الرابع ـ أن العلماء الذين أجازوا العمل بالضعيف في مثل الترغيب والترهيب لم يفتحوا الباب على مصراعيه لكل ضعيف ، وإنما اشترطوا لذلك شروطاً ثلاثة :

١ ـ ألا يكون الحديث شديد الضعف .

٢ ـ أن يندرج تحت أصل شرعي معمول به ثابت بالقرآن أو السنة الصحيحة .

٣ ـ ألا يعتقد عند العمل به ثبوته عن النبي ﷺ ، بل يعتقد الاحتياط .

ومن هذا يتبين أن أحداً من علماء الأمة لم يفتح الباب على مصراعيه لرواية الأحاديث الضعيفة بلا قيد ولا شرط ، بل اشترطوا الشروط الثلاثة المذكورة ، فضلاً عن الشرط الأساسي ، وهو : أن يكون في فضائل الأعمال ونحوها مما لا يترتب عليه حكم شرعي .

وينبغي في رأيي أن يضاف إلى هذه الشروط شرطان آخران :

١ ـ ألا يشتمل على مبالغات وتهويلات يمجها العقل أو الشرع ، أو اللغة .
وقد نص أئمة الحديث أنفسهم أن الحديث الموضوع يعرف بقرائن في الراوي أو المروي .

فمن القرائن في المروي ، بل من جملة دلائل الوضع : أن يكون مخالفاً للعقل ، بحيث لا يقبل التأويل ، ويلحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة . أو يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعي ـ أما المعارضة مع إمكان الجمع فلا ـ أو يكون خبراً عن أمر جسيم تتوفر الدواعي على نقله بمحضر الجمع ثم لا ينقله منهم إلا واحد ! .

ومنها : الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير ، أو الوعد العظيم على الأمر الحقير وهذا كثير فى أحاديث القصاص .

ومما يؤسف له أن كثيراً من المحدثين لا يطبقون هذه القواعد عندما يروون فى الترغيب والترهيب ونحوه . وربما كان لهم عذر من طبيعة عصرهم . أما عقلية عصرنا فلا تقبل المبالغات ، ولا تهضمها ، وربما تتهم الدين ذاته إذا أُلقى عليها مثل هذه الأحاديث .

ومما تمجه اللغة : كثير من الأحاديث التى رواها بعض القصاص ، مثل دراج أبى السمح فى تفسير كلمات من القرآن الكريم لها مدلولاتها الواضحة فى اللغة ، فروى لها تفسيرات هى غاية فى الغرابة والبعد عن المدلول اللغوى .

فمن حديث دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعاً « ويل: واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره » رواه أحمد والترمذى بنحوه إلا أنه قال : « سبعين خريفا » مع أن « ويل » كلمة وعيد بالهلاك معروفة قبل الإسلام وبعده .

ومثل ذلك ما جاء عند الطبرانى والبيهقى عن ابن مسعود من تفسير « الغى » فى قوله تعالى « **فسوف يلقون غياً** »[٣٦] قال : « واد جهنم » وفى رواية « نهر فى جهنم » .

وكذلك ما رواه البيهقى وغيره عن أنس بن مالك فى قوله تعالى « **وجعلنا بينهم موبقا** »[٣٧] قال : « واد من قيح ودم » .

وأغرب منه ما رواه ابن أبى الدنيا عن شفى بن مانع : أن فى جهنم وادياً يدعى « أثاماً » فيه حيات وعقارب . . إلى آخره يشير إلى قوله تعالى : « **ومن يفعل ذلك يلق أثاماً** »[٣٨] .

وقد ذكر هذه الأحاديث الحافظ المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » .

٢ ـ ألا تعارض دليلاً شرعياً آخر أقوى منها :

---

(٣٦) مريم : ٥٩ .

(٣٧) الكهف : ٥٢

(٣٨) الفرقان : ٦٨

مثال ذلك : الأحاديث الضعيفة التى رويت فى شأن عبد الرحمن بن عوف : أنه يدخل الجنة حبواً بسبب غناه .

فقد يقال : إن مثل هذه الأحاديث تندرج تحت أصل. التحذير من فتنة المال ، وطغيان الغنى ، ولكن يجب أن نذكر أنها تعارض أحاديث صحيحة جعلت عبد الرحمن بن عوف من العشرة المبشرين بالجنة ، فضلاً عن وقائع ثابتة ، وروايات مستفيضة ، تثبت أنه كان من خيار المسلمين ، وكبار المتقين ، وأنه يمثل الغنى الشاكر حقاً ، ولهذا توفى رسول الله ﷺ وهو عنه راض ، وجعله عمر فى الستة أصحاب الشورى وجعل لصوته ميزة ترجيحية على غيره عند تساوى الأصوات .

ولهذا قال الحافظ المنذرى فى « الترغيب والترهيب » : وقد ورد من غير ما وجه ، ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبى ﷺ أن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله ، ولا يسلم أجودها من مقال ولا يبلغ منها شىء بانفراده درجة الحسن ، ولقد كان ماله بالصفة التى ذكر رسول الله ﷺ : نعم المال الصالح للرجل الصالح ، فأنى تنقص درجاته فى الاخرة ، أو يقصر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة ؟ ـ فإنه لم يرد هذا فى حق غيره ، إنما صح سبق فقراء هذه الأمة أغنياءها على الإطلاق ـ والله أعلم »[٣٩] .

* * *

● من أين تتسرب الأحاديث الضعيفة إلى الدعاة ؟

وإنما تتسرب الأحاديث الموضوعة الساقطة إلى الدعاة ، لاعتمادهم على كتب لا تعنى بانتقاء الأحاديث التى توردها وغربلتها ، وربما لا تعزوها بمجرد عزو إلى من خرجها من أصحاب الكتب الحديثية . مع أن هذا العزو لو حصل لا يكفى فى معظم الكتب حيث لا يلتزم مؤلفوها الاقتصار على الصحيح أو الحسن .

فترى الأكثرين ينقلون من كتب الوعظ والتصوف والتفسير ونحوها ، ظانين أن هذا يعفيهم من البحث فى درجاتها ، والاطمئنان إليها . بأن تكون على الأقل ـ فى أدنى درجات القبول . أما كتب الوعظ والرقائق فأنصح لقارئها ألا يعتمد عليها فى نقل الحديث ، لأنها تجمع السمين والغث ، والجديد والرث ، ولا

(٣٩) الترغيب والترهيب جـ ٥ ص ٣٠٨ ط . السعادة .

تدقق فيما تروى من أحاديث أو آثار ، أو قصص وأخبار ، بدعوى أنها لا يتعلق بها حكم شرعى .

حتى حفاظ الحديث الناقدون إذا ألفوا فى الوعظ وما يتعلق به ترخصوا وتساهلوا إلى حد التفريط فيما يروونه فى بعض الأحيان .

هكذا وجدنا الإمام ابن الجوزى صاحب « الموضوعات » و « العلل المتناهية » وغيرها يرخى لنفسه العنان فى كتابه « ذم الهوى » وغلبت فيه عاطفة الواعظ على عقليه الناقد الحافظ . وكذلك الحافظ الذهبى رأيناه يتساهل فى كتابه « الكبائر » .

ونصيحتى لمن أراد أن يأخذ الحديث من كتب التفسير أن يرجع إلى ابن كثير ، فهو حافظ متقن ناقد ، يعنى بتخريج ما يورده ، والتعقيب عليه ـ غالباً ـ بالتوثيق أو التضعيف .

ومن أخذ عن « إحياء » الغزالى عليه أن يرجع إلى تخريج الحافظ العراقى لأحاديثه وهو مطبوع مع الإحياء ، ومراجعته ضرورية لكل قارىء للكتاب ، أو ناقل عنه بعض ما أورد من حديث . وبذلك يعرف قيمة ما يأخذ من أحاديث .

ومن أخذ من الترغيب والترهيب للمنذرى يجب عليه أن يقرأ مقدمته التى يبين فيها أنواع الأحاديث التى يذكرها ، والمصطلحات التى يستخدمها لبيان درجاتها قوة وضعفا ، حتى لا ينقل الضعيف الشديد الضعف ، وهو يحسب أنه حسن أو صحيح ، لجهله باصطلاح صاحب الكتاب .

ومن أخذ عن « الجامع الصغير » للسيوطى ، أنصحه أن يراجع شرحه الكبير « فيض القدير » أو المختصر « التيسير » للمناوى ، ولا يكتفى بإشارات الجامع : ص للصحيح وح للحسن وض للضعيف ـ ، لكثرة ما أصابها من التحريف على يد النساخ أو الطابعين ، ولأن للشارح تعقيبات واستدراكات على صاحب الجامع ينبغى أن ينتفع بها . وقد قام العلامة الشيخ محمد ناصر الألبانى بفصل صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) عن ضعيفه وصدر كل منهما فى عدة أجزاء ، فخدم بذلك الكتاب وطالبى الحديث أيما خدمة .

ومن كتب السنة التى ينبغى الاستفادة منها فى هذا المقام ، ما ألف لتخريج أحاديث بعض الكتب المشهورة فى فنونها ، ممن لا يلتزم أصحابها تخريج ما يروونه

سواء أكانت كتب تفسير مثل تخريج أحاديث « الكشاف » للحافظ ابن حجر ، أو كتب تصوف مثل تخريج أحاديث « الإحياء » للحافظ العراقى ، أو كتب فقه مثل تخريج أحاديث « الهداية » للحافظ الزيلعى ، وأحاديث « الاختيار » للعلامة قاسم . وأحاديث شرح الرافعى الكبير لابن حجر المسمى « تلخيص الحبير »

ومن كتب السنة المهمة : ما يتعلق بالأحاديث الشائعة المشتهرة على ألسنة الناس وبيان من أخرجها ، ودرجتها من الصحة أو الحسن أو الضعف أو الوضع مثل « المقاصد الحسنة » للسخاوى ، و « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » . . لابن الديبع الشيبانى ، و « كشف الخفاء ومزيل الإلباس ، فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس » للعجلونى ، وهو أجمعها وأوفاها ، وهو مرتب على حروف المعجم

ومن الكتب التى لا يستغنى عنها : كتب « الموضوعات » أى الأحاديث المختلقة المفتراة على رسول الله ﷺ : مثل « الموضوعات » لابن الجوزى ، « واللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » للسيوطى . و « تحذير الخواص من أكاذيب القصاص » له ، و « المنار المنيف فى الصحيح والضعيف » لابن القيم . و « الموضوعات الكبرى » للشيخ على القارى . و « الموضوعات الصغرى » له أيضاً ، وهو المسمى « المصنوع فى معرفة الموضوع » و « تنزيه الشريعة المرفوعة من الأحاديث الشنيعة الموضوعة » لابن عراق ، و « الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » ـ للشوكانى ، و « الأسرار المرفوعة » للكنوى . و « الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها فى الأمة » للألبانى .

* * *

الفقـــــه

ولابد للداعية من قدر مناسب من الثقافة الفقهية ، بحيث يعرف أهم الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والآداب ، وما لم يعرفه أو يستحضره يكون قادراً على مراجعة حكمه فى مصادره ومظانه الموثقة . وذلك مهم للداعية من عدة نواح ليستطيع أن يجيب السائلين عن الحلال والحرام وشئون العبادة والأسرة ونحوها ، مما يكثر الناس السؤال عنه ويلجأون عادة إلى الدعاة يلتمسون منهم الفتوى فى ذلك . فمن لم يكن متضلعاً من الفقه سكت أو تهرب ، وفى ذلك إضعاف لموقفه وتأثيره ، أو أفتى بغير علم ، وهذه هى الطامة كما فى حديث الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسا جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

ثانيا : ليمكنه تصحيح ما يقابله من أخطاء ، وتقويم ما يواجهه من انحرافات ، فى ضوء الأحكام الشرعية ، فإذا رأى بعض البدع الفاشية أو المنكرات السائدة ، أو الأخطاء الدينية الشائعة ، واجهها بعلم وفقه ، لا بمجرد غضب وعاطفة . ومعنى هذا : أنه لا ينكر أمراً مجتهداً فيه بين الأئمة ، إلا إذا ترتب عليه منكر أكبر منه ، وقد حكى ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية إنكار فى المسائل الاجتهادية ، إلا فى حدود معينة ، وكذلك ينبغى ألا ينكر المنكر أنه مر على قوم من التتار جلسوا يشربون الخمر ، فأنكر عليهم بعض أصحابه ، فقال : دعهم وما هم فيه ، فإن الله إنما حرم الخمر ، لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدهم الخمر عن سفك الدماء ، ونهب الأموال ! كما ينبغى أن يقدم الأهم على المهم ، والكلى على الجزئى ، والفرض على النافلة .

ثالثا : ليعمل على تطعيم عظاته ودروسه بالأحكام المهمة التى يحتاج إليها الناس فى وقتها ، فإذا تحدث مثلا عن الزكاة أو الصيام أو الحج وغيرها ، لم يقتصر حديثه على محض الترغيب والترهيب ، بل يحرص على إعطاء سامعه أو قارئه خلاصة الأحكام الأساسية لكل منها بأسلوب سهل قريب مقبول . وبذلك يستنير

الناس ، ويتعرفون على أحكام دينهم بيسر وسهولة . فالداعيه الناجح هو الذى يعظ الناس ويفقههم ، بحيث لا يطغى وعظه على ففهه ولا فقهه على وعظه . ونوصى الداعية هنا بعدة أمور :

١ ـ أن يحرص على ربط الأحكام بأدلتها من الكتاب والسنة ، وما أرشد اليه من اعتبارات أخرى . كالإجماع والقياس والاستصلاح والاستحسان وغيرهما من أدلة ما لا نص فيه . ويعرفون الفقه بأنه معرفة الأحكام الشرعية المأخوذة من أدلتها التفصيلية . فلا فقه بلا دليل . على أن الدليل يكسو الحكم أو الفتوى نورا وجمالا . ويمكنه هنا الانتفاع بكتب فقه الحديث ، مثل : « الإحكام » لابن دقيق العيد ، و « نيل الأوطار » للشوكانى و « سبل السلام » للصنعانى و « الروضه الندية » لصديق حسن خان وكتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم وغيرها . ومثل ذلك : كتب الفقه التى تعنى بالتدليل والترجيح ومناقشة الاخرين مثل : « المغنى » لابن قدامة الحنبلى و « المجموع » للنووى الشافعى ، و « الاستذكار » لابن عبدالله المالكى ، و « المحلى » لابن حزم الظاهرى . و « الروض النضير » .

٢ ـ وإذا كان الداعية ملتزما بمذهب من المذاهب الفقهية المتبوعة ، فلا يمنعه هذا من التعرف على أدلة مذهبه ليطمئن قلبه ، ولا مانع من ترك المذهب فى بعض المسائل التى يشعر بضعف أدلتها إلى مذهب يرى أنه أسعد بالدليل من مذهبه ، وقد روى عن الأئمه المتبوعين جميعا قولهم : « إذا صح الحديث فهو مذهبى »

ولا يجوز للداعية أن يدع السنه الصحيحه الصريحه بحجة تقيده بمذهبه كما رأينا بعض خطباء الجمعة على المنابر يأمرون الداخل إلى المسجد بالجلوس إذا أراد هو صلاة ركعتين تحية للمسجد . هذا مع ما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه :

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال . جاء سليك الغطفانى يوم الجمعة ورسول الله ﷺ ـ قاعد على المنبر ، فقعد سليك قبل أن يصلى فقال له النبى ﷺ : أركعت ركعتين ؟ قال : لا . قال : قم فاركعهما . . » الحديث ٤١٨ من مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

٣ ـ ويحسن بالداعية أن يتعرف على المذاهب الأخرى ، وبخاصة التى يتبعها بعض من يدعوهم ؛ فإن كان مالكيا وهو فى بيئة حنبلية ، أو كان حنبليا أو شافعيا

وهو فى بيئة حنفية ، أو العكس ، فينبغى له أن يلم بأهم ما يتميز به مذهب البلد عن مذهبه ، حتى لا ينكر على الناس مالا يجوز أن ينكر .

فالشافعى المحصور فى مذهبه ، إذا حل فى بيئة مالكية ، قد يستغرب من أهلها أنهم لا يتطهرون من بول وروث ما يؤكل لحمه ، أو يرسلون أيديهم فى الصلاة أو نحو ذلك ، فلا يتكلم فى ذلك إلا وهو عالم بمذهب القوم ومأخذه من الاستدلال .

ومثل ذلك الحنفى الذى يحل فى بلد شافعى أو حنبلى : فيجد الناس يرفعون أيديهم عند الركوع ، وعند الاعتدال منه ، أو يجدهم يقرأون الفاتحة خلف الإمام ويرفعون ـ أصواتهم بالتأمين ، ولا يسلمون إلا بعد أن يفرغ الإمام من تسليمتيه الخ ، فقد يبادر إلى انكار ما عليه القوم ، وهو لا يعلم أن هذا هو مذهبهم الذى يتعبدون على أساسه .

وأنصح الداعية أن يقرأ ـ على الأقل ـ كتابا فى الفقه المقارن مثل « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » لابن رشد .

٤ ـ ينبغى على الداعية أن يقتدى بالقرآن والسنة فى تعليل الأحكام ، وبيان حكمها وثمراتها فى الأنفس والحياة ، وربطها بالفلسفة العامة للإسلام ، حتى تقع من النفس موقع القبول .

وقد وجدنا القرآن الكريم يذكر الحكم والمنافع من وراء العبادات ذاتها ، مع أن الأصل فيها التعبد والامتثال لأمر الله تعالى ، كقوله فى الصلاة : « **وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** »[1] وفى الزكاة « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** »[2] وفى الصيام : « **كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** »[3] وفى الحج : « **ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات** »[4].

فإذا كان هذا فى الأمور التعبدية ، فكيف بغيرها من المعاملات وشئون الحياة ؟

---

(١) العنكبوت : ٤٥
(٢) التوبة : ١٠٣
(٣) البقرة : ١٨٣
(٤) الحج : ٢٨ .

فهذا مطلوب فى كل حين لكن طلبه فى عصرنا ألزم ، والحاجة إليه أوكد ، لأن كثيرا من الناس لم يعد يغلب عليهم التسليم ، وإنما يغلب عليهم البحث والتساؤل لمعرفة الأسرار والعلل ، ورحم الله امرءاً عرف زمانه ، وخاطب أهله بما يعرفون .

* * *

● **محذورات ينبغى التنبه لها :**

وأود أن أنبه هنا فى مقام تعليل الأحكام إلى بعض المحذورات التى يتورط فيها بعض الدعاة . فمن هذه المحذورات :

● **المبالغة فى تعليل العبادات :**

المبالغة فى تعليل العبادات بأمور دنيوية ، وربطها بها ربط العلة بالمعلول ، مع الغفلة عن حقيقة كبيرة يجب التنبيه عليها ، وهى أن العبادات مطلوبة طلب الغايات والمقاصد ، لا طلب الأدوات والوسائل ، فهى مرادة لذاتها بغض النظر عما وراءها من منافع وثمرات . بل هى الغاية من خلق المكلفين كما قال تعالى « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** »[٥] بل المقصود الأول من خلق هذا العالم كله علويه وسفليه : أن يعرف الناس ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . كما قال تعالى « **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما** »[٦] .

والمبالغة فى هذا الجانب قد تؤدى ببعض الناس إلى أن يقول : إذا كان هدف العبادات تربية الضمائر ، وتزكية الأنفس ، وتقويم الأخلاق . فعندنا وسائل أخرى توصلنا إلى هذا الهدف . وقد يقول بعض آخر ما قاله بعض الفلاسفة من قبل .

* * *

● **التعليل بأمر غير جامع ولا مانع :**

ومن المحذورات أن يعلل الحكم الشرعى بأمر غير جامع ، بمعنى أنه لا

---

(٥) الذاريـــات : ٥٦ .

(٦) الطـــلاق : ١٢

ينطبق على كل الحالات ، ولا مانع ، بمعنى أنه ينطبق على غير المعلل مما لم يأخذ حكمه .

مثال ذلك : تعليل تحريم لحم الخنزير بأنه يأكل القاذورات ، فقد يردّ رادّ بأن هذا لا ينطبق إلا على الخنازير السيئة التغذية ، أما الخنازير التى تربى فى حظائر خاصة ، ويشرف عليها مختصون يعنون بأمرها ، فلا يتفق معها هذا التعليل .

وكذلك إذا قال قائل : إنما الخنزير ، لأن اعتياد أكله يورث فقدان الغيرة على النساء والحرمات ، كما هو مشاهد لدى الأوربيين الذين يدينون بالمسيحية ، فهذا التعليل قد ينقض بأن ذلك قد يكون مرده للبيئة والتربية أكثر من رده إلى لحم الخنزير ، بدليل أن النصارى فى صعيد مصر وفى البلاد الشرقية عامة لا تنقصهم الغيرة .

كما أن اليهود فى الغرب ، وهم يحرمون الخنزير ، يسلكون فى أمر الغيرة ما يسلكه مواطنوهم من المسيحيين .

ونحو ذلك : أن تجعل علة التحريم ما اكتشف من ديدان شديدة الخطر على صحة الإنسان كالدودة الشريطية أو الوحيدة . فقد قالوا : إن هذه الديدان توجد فى لحوم الأبقار أيضا ، وقد أحل الشرع أكلها !

ولهذا لا تجوز للداعية المجازفة بالتعليل فى مثل هذه الأمور ما لم يكن تعليلا ثابتا محكما مطردا فى كل الأحوال ، تقوم عليه الأدلة العلمية الناصعة ، التى لا مطعن فيها .

وإلا فحسب الداعية أن يقول : إن الله لم يحل إلا طيبا ، ولم يحرم إلا خبيثا ، ولم يشرع شيئا إلا لحكمة ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها ، وعدم العلم بها لا ينفى وجودها ، فإن علمنا أعجز من أن يحيط بكل حكمة الله تعالى فى شرعه أو فى خلقه .

وإذا كان العلم البشرى بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن قد اكتشف فى لحم الخنزير ديدانا خطرة لم يكن يعلم أحد بها يوم قال القرآن فى لحم الخنزير : إنه رجس . فما يدرينا ماذا سيكشفه العلم فى الغد القريب أو البعيد ؟

على أن هناك حكمة جلية فى إخفاء الله تعالى بعض حكمه وأسرار شرعه وخلقه عنا نحن المكلفين . وذلك ليتم الابتلاء ، وتظهر حقيقة العبودية للخالق . ويعرف من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، ويتبين من يطيع ربه ، ومن لا يطيع إلا عقله ، فهنا مفرق طريق بين المؤمن وغير المؤمن .

والمؤمن يقول إذا ثبت الأمر أو النهى من ربه : « **سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير** »[7] فهم الحكمة الجزئية فى هذا الأمر أم لم يفهم ، أدرك السر أم لم يدرك . حسبه أن يؤمن أن الله لا يأمره إلا بما ينفعه ، ولا ينهاه إلا عما يضره ، ولو كان لا يمتثل لأمر إلا لما يدرك عقله تفاصيل الحكمة فيه ، لكان حينئذ مطيعا لعقله لا لربه .

أما غير المؤمن ، فلا يستبعد منه أن يأتيه الأمر فيقول : سمعنا وعصينا . وذلك لأنه لم يلتزم بحقيقة العبودية لله ، والطاعة لرسوله ، وإنما يقف من ربه موقف الند للند .

فعلى الداعية أن يتنبه لهذا الجانب من علل الأحكام ، ولا يذكر منه إلا ما كان جامعا ومانعا ، وقام عليه البرهان ، وإلا عرض نفسه للاعتراضات من هذا وذاك ، ومن هنا وهناك .

وقد وقف أحد الدعاة يتحدث عن جريمة الزنا ، وهى إحدى الكبائر فى الإسلام ، فحصر حكمة التحريم فى منع اختلاط الأنساب .

وهنا قام له من يقول : لا حرج إذن على الحامل أن تزنى ، ولا حرج على المرأة العقيم ، ولا على من تتناول أقراص منع الحمل ، إذ لا خوف على واحدة من هؤلاء أن تحمل وتلد ، حتى يحدث اختلاط الأنساب . بل المرأة الأيم ـ التى لا زوج لها بكر أو ثيبا ـ إذا اتخذت خدنا لها لا يباشرها غيره ، فإنها إذا حملت منه يكون نسب حملها معروفا غير مختلط ولا مجهول .

ومن هنا كان الحذر واجبا فى إلقاء هذا النوع من الحكم والتعليلات . فلا تقال للناس إلا بعد دراسة وتثبت ، وإلا اكتفى بالحكم الإجمالية العامة ، اقتداء بالقرآن فى مثل قوله فى تعليل النهى عن الزنا : « **إنه كان فاحشة وساء سبيلا** »[8] .

---

(٧) البقـرة : ٢٨٥

(٨) الاسـراء : ٣٢ .

ومثل ذلك القول بأن الربا إنما حُرِّم ، لأنه استغلال لحاجة الفقراء لمصلحة الأغنياء .

فهذا التعليل إنما ينطبق على صورة معينة من الربا ، عرفها الناس فى كثير من الأزمان ولا يزالون يعرفونها إلى اليوم ، وهى صورة الإنسان الضعيف الذى تنزل به حاجة لنفسه أو لأسرته ، فلا يستطيع سدها إلا بالاستقراض والاستدانة ، ولا يجد من يقرضه إلا المرابى الغنى الذى يشترط عليه أن يعيد العشرة أحد عشر أو اثنى عشر أو أقل أو اكثر .

وهذه صورة محدودة تكاد تنقرض .

ويكاد يكون الذين يستقرضون الآن من المصارف وبيوت المال هم الأغنياء وكبار التجار الذين يريدون أن يوسعوا تجاراتهم ، أو يزيدوا من ثرواتهم ، يستقرضون مئات الألوف بل الملايين ، لبناء العمارات الشاهقة ، أو استيراد السلع المربحة .

وقد يودع بعض الناس من محدودى الدخل شيئا مما يدخرونه بعد نفقاتهم لدى المصارف « البنوك » تعطيهم مقابل ذلك فوائد محددة ٥٪ أو أقل أو أكثر . فآخذ الفائدة ـ وبعبارة أخرى : آكل الربا ـ هنا هو الفرد الضعيف ومعطى الفائدة ـ ومؤكل الربا ـ هو المصرف ـ البنك ـ القوى الغنى المتمكن .

وهذا ما جعل بعض المشتغلين بالفقه فى عصرنا ـ الذين حصروا حكمة التحريم فيما أشرنا إليه ، يجترئون على القول بأن الفوائد فى عصرنا ليست هى الربا الحرام ، لأنها فى الصورة المذكورة ـ استفادة للفقراء من الأغنياء ـ أصحاب البنوك ـ . ولهذا كان لابد من تعليل آخر ، وتوجيه آخر . وأوجه التعليل هنا كثيرة تراجع فى مظانها[٩] .

* * *

---

(٩) يراجع فى ذلك على سبيل المثال ما كتبه فى ذلك : د . محمد عبد الله دراز ، ومحمد ابو زهرة ، وسيد قطب ، رحمهم الله ، وما كتبه : أبو الأعلى المودودى،ود . عيسى عبده،ود . محمود أبو السعود مد الله فى أعمارهم وغيرهم من الكتاب المسلمين

● **الاقتصار على التعليلات المادية :**

من المحذورات فى ذكر الحكم والعلل : الاقتصار على التعليل بالأمور المادية الحسية . وخصوصا فيما يتعلق بالعبادات الشعائرية ، كالوضوء والصلاة والصيام والحج ونحوها .

فالوضوء فى نظر بعض الذين يتحدثون عن الإسلام أو يكتبون حكمته : النظافة ، والصلاة فى نظر هؤلاء حكمتها : تمرين الجسم على الرياضة والحركة واتباع النظام . والصيام فى نظرهم إنما فرض لإراحة المعدة شهر فى كل عام .

والحج فى نظرهم ليس إلا رحلة كشفية ، للتدريب على احتمال المشاق .

وجهل هؤلاء إن مثل هذه التعليلات تفتح عليهم أبوابا لا يقدرون على إغلاقها . فقد يقول لهم قائل :

إننى أستطيع أن أحقق النظافة بغير الوضوء .

وقد يقول ثان : أنا أستطيع أن أمرن جسمى رياضيا بغير الصلاة ، بالتمرينات المنظمة المدروسة ، يشرف عليها مدربون فنيون .

ويقول ثالث : إننى قادر على إراحة المعدة بغير الصيام .

ويقول رابع : إننى أستطيع أن أقوم برحلات كشفية أتدرب فيها على المشقات ، ولكن بغير الحج إلى بيت معلوم فى زمن معلوم .

وهكذا ، تكون هذه التعليلات ـ إذا لم تصغ صياغة دقيقة حكيمة موزونة سلاحا فى أيدى الذين يريدون أن يتفلتوا من تكاليف الدين وشعائره .

وأولى بنا أن ننهج نهج القرآن فى إعطاء الأولية والأولوية للتعليل بالأمور الدينية الروحية .

ـ ففى الصلاة يقول : « **وأقم الصلاة لذكرى** »[10]

« **وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر** »[11]

---

(١٠) طــه : ١٤ .

(١١) العنكبوت : ٤٥ .

أى ان اشتمال الصلاة على ذكر الله أكبر وأعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

ـ وفى الصيام يقول :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »(١٢) .

فجعل التقوى هى الغاية أو الثمرة من الصيام .

ـ وفى الزكاة يقول :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يروا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم »(١٣)

فحكمة الزكاة هنا ـ وهى فريضة مالية ـ حكمة نفسية روحية : تطهير وتزكية ، ودعاء وسكينة ، وقبول من الله الذى يأخذ بيمينه الصدقات .

ـ وفى الحج يقول :

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات »(١٤)

والمنافع المشهودة المذكورة فى الآية الكريمة أوسع وأعمق من أن تقتصر على الجانب المادى وحده . كيف وقد جاء فى الحديث : « إنما جعل الطواف بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، لإقامة ذكر الله »(١٥) .

ـ وفى الهدى والذبائح يقول :

« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم »(١٦) .

---

(١٢) البقرة : ١٨٣ .
(١٣) التوبة : ١٠٣ ، ١٠٤ .
(١٤) الحج : ٢٧ ، ٢٨ .
(١٥) رواه أبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ونوزع فى ذلك كما فى التيسير للمناوى .
(١٦) الحج : ٣٧ .

وأكثر من ذلك نجد القرآن الكريم حين يعلل للنواهى التى نهى الله عنها - وكثير منها يتعلق بنواهٍ اجتماعية واقتصادية - لا يعنى إلا بإبراز الجانب الدينى الذى يشمل كل الأحوال ، ويعم كل الأشخاص فى كل الأوقات ، وكل البيئات .

وذلك مثل قوله فى النهى عن الخمر إنها« **رجس من عمل الشيطان** »[١٧] .

ثم يذكر تعليلاً آخر فيقول : « **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة** »[١٨] .

فلم يهتم بذكر أضرارها على الجسم والعقل ، وإن كان ذلك معروفا غير منكور ، حتى لايقول قائل : إنما أشربها بقدر ، أو بعد استشارة الطبيب أو نحو ذلك .

وقوله تعالى فى تعليل النهى عن التبذير : « **ولاتبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا** »[١٩] .

وفى تعليل النهى عن قتل الأولاد : « **إن قتلهم كان خطئا كبيرا** »[٢٠]

وفى تعليل النهى عن قربان الزنا : « **إنه كان فاحشة وساء سبيلا** »[٢١] .

وفى تحريم الاستقسام بالأزلام « **ذلكم فسق** »[٢٢] .

وفى تحريم أكل أموال اليتامى « **إنه كان حوباً كبيراً** »[٢٣] .

وينبغى أن يكون هذا هو منهج الداعية فى تعليل الأوامر والنواهى إذا كان خطابه مع المؤمنين بالإسلام ، فحسبه أن يشير إلى أن فعل هذا الأمر يجلب رضا الله ومثوبته ، وأن اجتناب ذاك يجلب سخط الله وعقوبته . ولهذا يكتفى القرآن هنا بأن يقول للمؤمن : إنه رجس ، أو فسق ، أو خطأ ، أو حوب كبير ، أو فاحشة أو سبيل سوء .

* * *

---

(١٧) المائـدة : ٩٠

(١٨) المائـدة : ٩١ .

(١٩) الاسـراء : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢٠) الاسـراء : ٣١ .

(٢١) الاسـراء : ٣٢ .

(٢٢) المائـدة : ٣ .

(٢٣) النسـاء : ٢ .

● علم أصول الفقه :

ولابد للداعية أن يلم بعلم أصول الفقه حتى يعرف الأدلة المتفق عليها بين فقهاء الأمة وهى الكتاب والسنة ، والتى اتفق عليها جمهورهم وهى : الإجماع والقياس والتى اختلفوا فيها بعد ذلك بين مثبت وناف ، ومضيق وموسع ومتوسط ، وهى أدلة ما لا نص فيه ، من الاستحسان ، والاستصلاح ، والاستصحاب ، وشرع من قبلنا ، وقول الصحابى ، وما إلى ذلك مما تفرقت فيه وجهات النظر . .

وإذا كان الكتاب والسنة هما الأصلين والمصدرين الأساسيين ، فكيف تستنبط منهما الأحكام ؟ ومن يجوز له الاستنباط أو يجب عليه ؟ ومن يحل له التقليد أو يحرم عليه ؟

هنا نجد مسائل كثيرة بعضها اتفقوا عليه وبعضها اختلفوا فيه « **ولكل وجهة هو موليها** » . ولابد للداعية أن يعرف الراجح من المرجوح ليأخذ بالراجح ، ويعذر الآخذين بالمرجوح ، أو يقنعهم إذا استطاع .

وليس من الضرورى للداعية أن يقرأ المطولات فى الأصول فهذا شأن المتخصص . وحسبه أن يقرأ ما يعطيه فكرة ملائمة مثل « جنه الناظر » لابن قدامة أو « إرشاد الفحول » للشوكانى وهو أوسع ، أو كتابا حديثا مثل « أصول الفقه » للخضرى أو « علم أصول الفقه » لخلاف وهو كتاب جيد مفهوم . ويحسن بالداعية تتمة لهذا أن يعرف نبذة عن تاريخ الفقه الإسلامى ونشأة المذاهب وتطورها . وغلبة الجمود والتقليد على الاجتهاد والاستنباط فى الأعصر الأخيرة ويكفى فى هذا « تاريخ التشريع الإسلامى » للخضرى أو « خلاصة تاريخ التشريع الإسلامى » لخلاف .

* * *

● علم العقيدة :

ولا نريد بدراسة العقيدة دراسة منظومات المتأخرين فى علم التوحيد وشروحها مثل الجوهرة أو الخريدة ونحوهما ، ولا دراسة العقائد النسفية وما يتبعها من شروح وحواش ، ولا دراسة المطولات الكلامية مثل شرح المقاصد أو شرح المواقف وما شابهها فلم يعد كثير من مباحث هذه الكتب يحتاج إليه العقل المعاصر

أو يستسيعه ، ولم يعد يكفى للرد على سبهات الفلسفه الحديثه ، وما سره من مشكلات فكرية . لهذا يجب توفير الجهد الذهنى الصحيح الذى يبذل فى هضم هذه الكتب ، وحل ألغازها وفك طلاسمها ، لما هو اجدى فى الدفاع عن العقيده وتثبيتها .

هذا بالإضافه إلى أن المباحث الكلاميه ـ على عمقها وبعث الذهن فى فهمها واستيعابها ـ لا تكوّن عقيده ـ كل مهمتها الدفاع عن عقيدة تكوّنت بالفعل ، ورد الشبهات عنها . وأكثر من ذلك أن مباحث علم الكلام قد تأثرت بالفكر اليونانى ، والأسلوب اليونانى فى معالجة شئون العقيده .

ولهذا هاجم أئمه السلف علم الكلام وأهله ، وسددوا الحمله عليه

لهذا نريد من دراسة العقيد، مراعاه مايلى

١ ـ أن يكون كتاب الله تعالى ، وما بينه من صحيح السنه ، هو المصدر الفذ للعقيدة المنشودة ، بعيداً عن الشوائب والزوائد والفضول ، التى لحقت بها على مر العصور وبهذا تبقى العقيدة على صفائها ووضوحها وبساطتها ، ولا نجعل آراء مدرسة معينة أصلا بحمل القرآن عليه ، وتجر الآيات لتأييده

٢ ـ أن نتبع منهج القرآن فى مخاطبة العقل والقلب معاً من اجل تكوين الإيمان الصحيح ، فبناء العقيدة على العقل وحده كما هو اتجاه الفلاسفه ، او على القلب وحده كما هو اتجاه الصوفية ، لا يتفق مع شمول المنهج الإسلامى الذى يقوم الإيمان فيه على اقتناع العقل ، وانفعال القلب ، وصدق الاراده

٣ ـ الاهتمام بأدلة القرآن التى ذكرها لإثبات معتقداته ، وإقناع مدعويه ، والرد على خصومه ، وتفنيد ما يثيرونه من شبهات ومفتريات . مثل ادله القرآن على وجود الله التى أشار إليها مثل ابن رشد فى « مناهج الأدله » « العقاد فى « الله » ، والجسر فى « قصة الإيمان » وغيرهم . وكذلك ادلته على التوحيد ، وعلى البعث وعلى نبوة محمد ﷺ . وكلها أدلة عقليه برهانيه صريحه ، وليست خطابية أو إقناعية كما وهم بعض المتكلمين

٤ ـ صرف الهمة إلى مشكلات العقل المعاصر ، والاشتغال بقضايا العقيده الكبرى مثل : وجود الله تعالى ، توحيده ، النبوة ، الحياه الأخرى ، القدر ، أما المشكلات التاريخية مثل : خلق القرآن أو الصفات وعلاقتها بالذات : هل هى

عين أم غير أم لا عين ولا غير الخ . فينبغى أن تدرس كتاريخ للفكر الإسلامى ، ولا ننفق فيها من الوقت والجهد ما نحن فى حاجة إليه لمواجهة معضلات زماننا .

٥ ـ الاستفادة من ثقافة العصر ، وخصوصا فى ميادين العلوم البحتة كالفلك والطب والفيزياء وغيرها ـ لتأييد قضايا العقيدة وتثبيتها . كما فعل ذلك كثير من المؤلفين فى زماننا من الأجانب والمسلمين مثل صاحب « العلم يدعو إلى الإيمان » وأصحاب « الله يتجلى فى عصر العلم » وصاحب « قصة الإيمان » ومؤلف « الله والعلم الحديث » و « الإسلام يتحدى » . . . وغيرها .

٦ ـ أن نتبنى طريقة السلف فى وصف الله تعالى بما وصف به نفسه من غير تكييف ولا تمثيل ، ولا تحريف ولا تعطيل . وهى الطريقة التى انتهى إليها أساطين علم الكلام من الأشاعرة وغيرهم ، مثل أبى الحسن الأشعرى فى « الإبانة » والغزالى فى « إلجام العوام عن علم الكلام » والفخر الرازى فى « أقسام اللذات » حيث يقول فيه : « لقد تأملت المناهج الفلسفية ، والطرق الكلامية ، فلم أرها تشفى عليلا أو تنقع غليلا . ورأيت خير الطرق طريقة القرآن : أقرأ فى الإثبات « الرحمن على العرش استوى » وأقرأ فى النفى « ليس كمثله شىء » . ومن جرب مثل تجربتى ، عرف مثل معرفتى » .

٧ ـ نتبع شبهات المبشرين والمستشرقين والشيوعيين وغيرهم من خصوم الإسلام وتلاميذهم ، والرد عليها رداً علمياً فكرياً بلسان العصر .

* * *

● التصوف :

التصوف هو العلم الذى يبحث فى الجانب الأخلاقى والعاطفى من الثقافة الإسلامية .

ولا ينكر الدارسون أن التصوف قد أثرت فيه ـ إلى حد ما ـ عوامل أجنبية : مسيحية أو هندية أو فارسية أو يونانية إلى جوار العوامل الإسلامية أيضا ، وأنه قد دخلت فيه على مر الأزمان ـ أفكار غريبة من شتى المصادر المذكورة أو غيرها . حتى انتهى بعض أنواع التصوف إلى القول بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود[٢٤]

(٢٤) انظر : فصل « التصوف الفلسفى » من كتاب « مدخل إلى التصوف الإسلامى » للأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى ص ٢٢٧ وما بعدها .

وكان لبعضهم كلام عن « قدم النور المحمدى » أو ما يسمونه « الحقيقة المحمدية » وكلام عن الولاية والأولياء وعن الكشف والمواجيد والأذواق وتحكيمها فى النصوص الدينية ، وتفرقتهم بين الحقيقة والشريعة ، وتربية المريد أن يكون بين يدى الشيخ كالميت بين يدى الغاسل ، وغلوهم فى الزهد وما يتعلق به إلى حد يخرج عن وسطية الإسلام إلى رهبانية النصارى .

لهذا ولغيره ، وقف كثير من الحريصين على التمسك بالسنة موقف الريبة بل الخصومة ، من التصوف وتراثه ورجاله ، وأعلن بعضهم حربا على التصوف كله ، قديمه وحديثه ، سنيه وبدعيه ، وحمّله أوزار كل الانحرافات الفكرية والسلوكية التى ابتُلى بها المسلمون فى القرون الأخيرة . وبالتالى دعا إلى نبذ هذا التراث وهجره خشية ما يتخلله من مفاهيم لا تتلاءم مع الإسلام,والذى نريد أن نؤكد عليه هنا :

أولا ـ أن التصوف الفلسفى كله مرفوض من أساسه ، وإذا درسناه فإنما ندرسه لنرد عليه ونبين فساده ومنافاته للإسلام . ونريد بالتصوف الفلسفى : القائم على فكرة « الحلول » و « وحدة الوجود » .

ثانياً ـ أن الذى يعنينا من التصوف هو الجانب الأخلاقى والتربوى ، وهو الذى قال فيه ابن القيم فى « المدارج » : « اجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق » وعبّر عنه الكتانى بقوله : « التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف . »

ثالثاً ـ أننا يجب أن ننتقى من التصوف ما يخدم العقيدة الإسلامية . والأخلاق الإسلامية . وندع كل ما فيه شائبة أو ريبة ، وننتفع فى ذلك بمن نقد الصوفية مثل ابن الجوزى فى « تلبيس إبليس » وغيره .

كما نرى أن من الإنصاف أن نبين أن فى التراث الصوفى ـ على ما فيه من مآخذ ـ فوائد لاتنكر منها :

١ ـ أنه يجمع كثيراً من أقوال الصالحين ، وحكم الزهاد والعبّاد وأهل التقوى والبصيرة .

٢ ـ أن فيه لفتات روحية مشرقة فى فهم الأيات والأحاديث والتعليق عليها لا توجد عند غيرهم ..

٣ ـ أن الصوفية ـ حين عنى الفقهاء بأحكام الظاهر المحس ، والمتكلمون بالجانب العقلى الجاف ـ عنوا هم بأحكام الباطن ، ودراسة آفات النفوس ، ومداخل الشيطان إليها ، وكيفية وقايتها وعلاجها . ولهم فى ذلك من الممارسات والتجارب والمعارف ـ ماليس لطائفة غيرهم .

٤ ـ أن فى أقوالهم حرارة وحيوية يلمسها قارئها ، ولعل ذلك نتيجة المجاهدة النفسية والرياضة الروحية التى يعانونها ، وليست النائحة كالثكلى .

٥ ـ أن الصوفية الأوائل الذين وضعوا أسس التصوف ومهدوا طريقه ، رفضوا كل محاولة لإخراجه عن الشرع ، وأبوا إلا تقييده بالقرآن والسنة .

قال سيد الطائفة « الجنيد » من لم يقرأ القرآن ، ويكتب الحديث ، لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة . وقال : مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة . وكذلك جاء عن أبى حفص والدارانى وابن أبى الحوارى والسرى السقطى وغيرهم ، كما نقله عنهم القشيرى وغيره[٢٥] .

٦ ـ أن من أئمة الدعوة السلفية من تكلم فى التصوف وألف فيه ، ورد على باطله ، وأشاد بما فيه من حق ، كما يتضح ذلك فى رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية ، مثل « العبودية » و « التحفة العراقية فى الأعمال القلبية » ورسالة « الفقراء » وغيرها من الفتاوى والرسائل والبحوث ، التى ظهرت فى مجلدين من مجموع فتاويه ، أحدهما تحت عنوان : « التصوف » . والثانى تحت عنوان : « السلوك » وكذلك مؤلفات تلميذه المحقق العلامة ابن القيم فى ذلك وهى كثيرة منها : طريق الهجرتين ، وعدة الصابرين ، وذخيرة الشاكرين ، والداء ، والدواء ، وأعظمها : « مدارج السالكين شرح منازل السائرين » فى ثلاثة مجلدات وفيه وزن علوم القوم بميزان الكتاب والسنة .

* * *

● النظام الإسلامى :

ومن أهم ما ينبغى للداعية أن يدرسه دراسة وعى وهضم : النظام الإسلامى ، أو نظام الإسلام ، أو المذهبية الإسلامية ، أو فلسفة الإسلام .

---

(٢٥) انظر : مدارج السالكين جـ ٢ ص ٤٦٤ وما بعدها ط السنه المحمديـه .

ونعنى بهذا دراسة الإسلام خالصا غير مشوب ، متكاملا غير مجزأ . . الإسلام باعتباره مذهبا متميزا ، ونظاما كاملا للحياة : الحياة الفردية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة المادية ، والحياة المعنوية . ولا يغنى عن هذه الدراسة للإسلام المتكامل دراسة العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والتوحيد ونحوها ، لأنها لا تعطى نظرة عامة للإسلام كله ، وإنما تعطى نظرات منفرقة لجوانب منه ، كل على حدة ، دون إحكام الربط بينها .

وان الخطر على فهم الإسلام فهما صحيحا يتمثل فى عدة أمور يجب التحرز منها :

١ ـ أن يزاد عليه ، ويلصق به ما ليس منه من رواسب الديانات السابقة ، وثنية ومحرفة . وشوائبْ النحل والمذاهب ، شرقية وغربية ، وذلك بعد أن أكمله الله للأمة وأتم عليها به النعمة : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** »[٢٦] والكامل لا يقبل الزيادة كما لا يقبل النقص . ولهذا شدد الرسول ﷺ التحذير من الإحداث والابتداع فى الدين .

٢ ـ أن ينقص منه ما هو من أجزائه وصلب كيانه ، أو يؤخذ بعضه دون بعض ، كما فعل بنو إسرائيل بدينهم ، آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض . وفى عصرنا قامت محاولات لتجزئة الإسلام ، أو إهدار بعض تعاليمه ، كالذين يريدون الإسلام عقيدة بغير شريعة ، أو دينا بلا دولة ، أو صلاة بدون زكاة ، أو سلاما بلا جهاد ، أو زواجا بلا طلاق . . . الخ . والإسلام وحدة لا تقبل التجزئة والتفكيك « **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة** »[٢٧]

٣ ـ أن تشوه تعاليمه فى العقيدة أو العبادة أو الأخلاق ، أو التشريع ، فتعرض على غير حقيقتها ممسوخة محرفة ، بفعل الجهل أو الهوى ، كما شوهت فكرة القضاء والقدر فى العقيدة ، أو فكرة الحج فى العبادة ، أو فكرة الزهد فى الأخلاق ، أو فكرة الطلاق وتعدد الزوجات وضرب الزوجة الناشز فى نظام الأسرة ، أو فكرة الجهاد فى نظام الدولة ، وفكرة الحدود فى نظام العقوبات .

٤ ـ أن يختل التوازن بين قيمه وتعاليمه ، فيعطى بعضها دون حقه ، ويأخذ بعضها

---

(٢٦) المائــــدة : ٣ (٢٧) البقــــرة ٢٠٨

الآخر أكثر من حقه ، ويقدم ما يستحق التأخير ، ويؤخر ما يستحق التقديم . مع أن الإسلام قد أعطى كل عمل من الأعمال ، وكل واحد من تعاليمه قيمة و « سعراً » خاصا ، فلا توضع الفروع موضع الأصول ، ولا تحتل النوافل مكان الفرائض ، ولا تقدم أعمال الجوارح على أعمال القلوب ، ولا تؤثر القربات الفردية القاصرة على العبادات الاجتماعية المتعدية ، بل يوضع كل شيء في مرتبته الشرعية دون غلو ولا تقصير ، وإلا اضطربت المعايير وقُدِّم ما حقه التأخير .

ومن هنا ينبغي عند دراسة النظام الإسلامي أو الكتابة تفادي هذه الأخطارالأربعة : من الزيادة فيه ، أو النقص منه ، أو التشويه له ، أو الإخلال بتوازنه . وينبغي إذن أن يدرس النظام الإسلامي ، وإن شئت قلت : يدرس الإسلام على هذه الصورة :

(أ) خالصا مصفى من الشوائب والفضول والزيادات التي ألصقت به على مر العصور . ويجب العودة إلى نقاء الإسلام الأول : إسلام القرآن والسنة ، إسلام الصحابة وتابعيهم بإحسان ـ قبل أن تظهر الفرق ، وتطرأ البدع ، وتتفاقم الفتن .

(ب) شاملا متكاملا ، غير مبتور ، ولا مجزأ ،ولا محذوف منه ، بعقائده وتصوراته ، بشعائره وعباداته ، بأخلاقه وآدابه ، بنظمه وتشريعاته : الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمدنية والجنائية ، مع وجوب الربط بينها ، وشدها جميعا إلى أصل أصولها وأسس بنائها ، وهو توحيد الله تعالى .

(جـ) سليما كاملا ـ مبرأ من تشويه المشوهين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية للإسلام ، مع العناية بتوثيق الدليل ، وحسن التعليل ، والاهتمام بإبراز خصائص الإسلام : ربانيته ، إنسانيته ، شموليته ، وسطيته ، واقعيته ـ الخ .

(د) متوازنا متسقا واضح التقاسيم ، محدد المفاهيم ، مرتب التعاليم ، بحيث يقدم فيه الأهم على المهم ـ والمهم على غير المهم ، وتوضع مبادئه وأحكامه في مراتبها الشرعية : العقيدة قبل العمل ، والعبادة قبل المعاملة ، والفرائض قبل النوافل ، والكبائر قبل الصغائر ، والأركان قبل غيرها .

وينبغي أن يستفاد من كتابات المعاصرين من رجالات الفكر الإسلامي في أنحاء العالم الإسلامي وذلك في المجالات الأساسية للنظام الإسلامي ـ ونرشح لذلك بعض الكتب على سبيل المثال لا الحصر . وإن كان كل بشر يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ .

أولا ـ فى مجال العقيدة والأسس الفكرية :

١ ـ مبادىء الإسلام : أبو الأعلى المودودى .
٢ ـ العقائد الإسلامية . حسن البنا .
٣ ـ حصائص التصور الاسلامى : سيد قطب .
٤ ـ قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن : نديم الجسر
٥ ـ نظام الإسلام . العقيدة والعبادة : محمد المبارك
٦ ـ الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان .
٧ ـ الله جل جلاله : سعيد حوى
٨ ـ الرسول ﷺ : سعيد حوى .
٩ ـ حقائق الاسلام وأباطيل حصومه : عباس العقاد .
١٠ـ عقيدة المسلم : محمد الغزالى
١١ـ الإيمان والحياة : د . يوسف القرضاوى .

ثانياً ـ فى مجال العبادة والشعائر :

١ ـ الأركان الأربعة : أبو الحسن الندوى
٢ ـ العبادة فى الإسلام · د . يوسف القرضاوى .

ثالثاً ـ فى مجال الأخلاق :

١ ـ ربانية لا رهبانية : أبو الحسن الندوى .
٢ ـ خلق المسلم : محمد الغزالى .
٣ ـ دستور الأخلاق فى القرآن : محمد عبدالله دراز .

رابعاً ـ فى مجال التشريع والنظام الاجتماعى :

١ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام : سيد قطب .
٢ ـ خطوط رئيسية فى الاقتصاد الإسلامى : محمود أبو السعود .
٣ ـ منهاح الإسلام فى الحكم : محمد أسد .
٤ ـ نظام الاقتصاد : محمد المبارك .
٥ ـ الحكم والدولة . محمد المبارك .
٦ ـ الاقتصاد الإسلامى ـ مدحل ومنهاج : عيسى عبده إبراهيم .
٧ ـ الفكر الإسلامى المعاصر (الحكم والمجتمع) : د . محمد البهى .
٨ ـ الفكر الإسلامى المعاصر (الأسرة والتكافل) : د . محمد البهى .

٩ ـ الإسلام والأوضاع الاقتصادية : محمد الغزالى .
١٠ـ الإسلام المفترى عليه : محمد الغزالى
١١ـ اشتراكية الإسلام : د . مصطفى السباعى
١٢ـ الثروة فى ظل الإسلام : البهى الخولى
١٣ـ فقه الزكاة : د . يوسف القرضاوى
١٤ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام : د . يوسف القرضاوى
١٥ـ غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى : د . يوسف القرضاوى
١٦ـ التشريع الجنائى الإسلامى : عبدالقادر عودة .
١٧ـ الإسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت
١٨ـ أحكام الذميين والمستأمنين فى شريعة الإسلام : د . عبدالكريم زيدان
١٩ـ الفرد والدولة فى شريعة الإسلام : د . عبدالكريم زيدان
٢٠ـ المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام : محمد أبو زهرة
٢١ـ نظام الحكم فى الإسلام : د . محمد عبدالله العربى
٢٢ـ نظرية الإسلام وهديه فى السياسة والدستور : أبو الأعلى المودودى
٢٣ـ الربا والاقتصاد الإسلامى : أبو الأعلى المودودى
٢٤ـ الحجاب : أبو الأعلى المودودى
٢٥ـ مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى : حسن البنا
٢٦ـ الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة : البهى الخولى

* * *

الثقافة التاريخية

ومن الثقافة اللازمة لمن نصب نفسه للدعوة : الثقافة التاريخية .

فالتاريخ هو ذاكرة البشرية ، وسجل أحداثها ، وديوان عبرها ، والشاهد العدل لها أو عليها .

ويهمنا فى ذلك تاريخ الإسلام والأمة الإسلامية خاصة ، وتاريخ الإنسانية بصفة عامة ، أعنى المواقف الحاسمة منه ، والملامح الرئيسية فيه ، لأنه لا يتصور أن يدرس ، الإنسان تاريخ البشر كافة ، ولو كان متخصصا . . فكيف بغير المتخصص ! وإنما يحتاج الداعية إلى التاريخ لأمور :

١ ـ أنه يوسع آفاقه ، ويطلعه على أحوال الأمم ، وتاريخ الرجال ، وتقلبات الأيام بها وبهم ، فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنن الله فى المجتمعات بلا محاباة ولا جور : كيف ترقى الأمم وتهبط ؟ وكيف تقوم الدول وتسقط ؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم ؟ وكيف تحيا الحضارات وتموت ؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون ؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو ؟ ـ يقول القرآن : « **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » .(*)

٢ ـ أن التاريخ أصدق شاهد على ما يدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم . فهو مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى ، ونهاية الكفر والفجور ، وجزاء الشاكرين لنعمة الله ، وعقوبة الكافرين بها ، وكيف يجنى من يغرس الخير ، ويحصد من يزرع الشوك . ولهذا عنى القرآن الكريم بذكر قصص السابقين ، وتواريخ الغابرين لما فيها من عبر بليغة ، وعظات حية . كما قال تعالى : « **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص . إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** »[1] .

وقال : « **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** »[2] .

(*) الحج : ٤٦ . (١) سورة ق : ٣٦ ، ٣٧ . (٢) يوسف : ١١١

وكثيرا ما يعقب على نهاية الأمم تعقيبات تبرز ما وراءها من دروس ، مثل قوله بعد قصة ثمود : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون »[3] وقوله بعد قصة سبأ : « ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور »[4] وقوله بعد قصة موسى وفرعون : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون »[5] .

والداعية يحتاج إلى أن يستشهد للمعانى والقيم التى يدعو إليها بأحداث التاريخ ، ومواقف الأبطال ، وغير الأبطال . فهذا أعون على تثبيتها فى العقول والقلوب ، فإن الكلمات قد تنسى ، ولكن الوقائع قلما تنسى .

٣ ـ أن التاريخ كثيرا ما يعين على فهم الواقع الماثل ، ولا سيما إذا تماثلت الظروف ، وتشابهت الدوافع ، وهذا ما جعل العرب قديما يقولون : ما أشبه الليلة بالبارحة ! وجعل الغربيين يقولو التاريخ يعيد نفسه . بل القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى حين أشار إلى وحدة التصرفات أو تشابه الأقوال عند تشابه البواعث وذلك فى مثل قوله عن المشركين وطلبهم الآيات الكونية من رسول الله كقولهم : « لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية »[6] : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم »[7] وقال فى سورة أخرى :

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون »[8] أى أنهم اتحدوا فى الاستكبار والطغيان فاتحد ما صدر عنهم من زور وبهتان .

وأكثر من ذلك أن بعض القضايا الحاضرة لها جذورها التاريخية البعيدة الأغوار ، فمن لم يعرف أغوار ماضيها لم يدرك أسرار حاضرها . فالصدام بين الإسلام والمسيحية فى هذا العصر لا يعرف حق المعرفة ما لم يعرف صراع الحروب الصليبية ، وما دفع إليها من بواعث ، وما صحبها من دمار ، وما خلفته من آثار وما أسفرت عنه من نتائج . . بل لا يعرف إلا من بداية الصراع منذ موقعة اليرموك وفتوح الشام ومصر وإفريقية فى عهد الراشدين بل منذ معركة مؤتة وغزوة تبوك فى عهد النبى ﷺ .

(٣) النمل : ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) سبأ ١٧
(٥) الأعراف : ١٣٧ .
(٦) البقره : ١١٨
(٧) البقرة . ١١٨ .
(٨) الذاريات : ٥٢

٤ ـ أن بعض جوانب التاريخ لها صلة وثيقة بعمل الداعيه واهتماماته ، وأعنى الجانب العقلى أو الفكرى فى التاريخ ، مثل : تاريخ الأديان : نشأتها وتطورها ، وأهم الشخصيات والوقائع المؤثرة فى سيرها وما آلت إليه فى النهاية : ومثل ذلك : تاريخ النحل والفرق . . . تاريخ الفلسفات والمدارس الفكرية . تاريخ الحضارات الكبرى ، ولا سيما الجانب الثقافى منها .

* * *

● **تنبيهات للدعاة فى المجال التاريخى :**

وأود أن ينتبه الداعية الذى يطالع التاريخ ، ويقتبس منه إلى الأمور الآتية :

(أ) ألا يجعل أكبر همه وعى جزئيات التاريخ وتفصيلاته ، فهذه لا يمكن أن تحصر ولو أمكن أن تحصر لكانت فائدة الداعية منها جد قليلة . إنما المهم رؤوس العبر ، ومواقع العظمة فى التاريخ .

وبعبارة أخرى : المهم هو المغزى الأخلاقى للتاريخ واتجاهات الأحداث فيه ، وحصادها الناطق المعبر بلسان الحال .

(ب) أن يكون ذا وعى يقظ للوقائع التاريخية التى تخدم موضوعه ، وتعمق فكرته وتقدم لها الشواهد الحية . وليس من اللازم أن يجد هذه الوقائع فى كتب التاريخ المتخصصة . بل كثيرا ما يلتقطها بحسه الواعى من مصادر قد لا يلتفت إليّها كثيرا رجال التاريخ . فقد يلتقطها من القرآن فيما قصه علينا بالحق « ما كان حديثا يفترى » ، وقد يلتقطها من كتب الحديث والآثار ، وخصوصا فيما يتعلق بعصر الراشدين والقرون الأولى ، وقد يلتقطها من بعض كتب الأحكام مثل الخراج والأموال ، وقد يلتقطها من كتب الأدب ، أو كتب الخـ‍بة ، أو كتب الرحلات ، أو كتب الفتاوى وعيرها .

(جـ) أن يعنى بسير الرجال ، ومواقف الأبطال ، وبخاصة العلماء والدعاة ، والصالحون . وفى تاريخنا ثروة من السير تتمثل فيها الأسوة الحسنه ، والقدوة الصالحة ، وتبرز الشخصية المسلمة مجسدة فى مواقف وأعمال كما نلمس ذلك فى كتب الطبقات والتراجم ، سواء ما كان منها عاما كوفيات الأعيان ، والوافى بالوفيات ، وما كان منها حاصا بفئة معينة كرجال الحديث مثلا ، كما تجد ذلك فى طبقات ابن سعد وتهديب التهذيب أو الزهاد والصالحين مثل حلية الأولياء وصمه الصفوة ، أو الفقهاء مثلا كالمجتهدين من الأئمة أو أتباع مذهب معين مثل طبقات الحنفية أو التسافعية أو غيرهم من علماء المذاهب المتبوعة . وهكذا طبقات الأطباء والحكماء واللغويين والنحاة . الخ . .

فالذى نركز عليه هنا : أن التاريخ ليس للملوك ولا لرجال السياسة وحدهم فكم من أفراد وفئات أخرى تسهم فى صنع التاريخ ، وتترك « بصماتها » فى حياة الناس أكثر من السلاطين والأمراء والزعماء السياسيين .

وقد نجد حياة هؤلاء الطافين على سطح التاريخ فقيرة أو مقفرة من القدوة على حين نجد حياة الآخرين خصبة وثرية من المثل العليا ، والمعانى الطيبة.وهذا ما لم يغفله تاريخنا الإسلامى والحمد لله .

(د) أن يهتم بربط الحوادث والوقائع ـ خصوصا فى تاريخنا الإسلامى ـ بأسبابها وعللها المعنوية والأخلاقية . فالذى يطالع تاريخنا بدقة ويتأمل سيره بعمق ، يجد أن المد والجزر ، والامتداد والانكماش ، والنصر والهزيمة والازدهار والذبول ، والغنى والفقر ، كلها ترتبط بمقدار صلة الأمة بالإسلام أو انفصالها عنه ، وقربها من تعاليمه أو بعدها عنها ، وحسبنا أن نلقى نظرة عجلى إلى عصر الراشدين أو عصر عمر بن عبدالعزيز أو عصر الرشيد أو نور الدين أو صلاح الدين ، لنرى تمسكا بالدين أو رجعة إليه ، ونرى ثمارها عزا وازدهارا . والعكس بالعكس فى عصور أو فترات أخرى .

(هـ) أن يكون محور التاريخ الإسلامى هو الإسلام نفسه دعوة ورسالة ، وأثره فى تربية الأجيال وتكوين الأمة المسلمة ، وإقامة الدولة الإسلامية وبناء الحضارة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، وتأثيره فى العالم كله ، وقدرته على الانتشار عند القوة ، والمقاومة عند الضعف ، واستطاعته التأثير فى غالبيه ليعتنقوه عن رضا واختيار ـ كما فعل مع السلاجقة والتتار ، واختزانه كل العناصر والطاقات اللازمة لإمداد أمته بروح الجهاد لإثبات الذات أو لاستعادتها .

وهنا يجب أن نركز على عدة حقائق تاريخية قد يغفلها مُغْفِلون عمداً أو سهواً :

١ ـ يجب إبراز الجاهلية العالمية والعربية ـ التى كان يتردى فيها العالم عامة والعرب خاصة ـ على حقيقتها بلا إفراط ولا تفريط

ذلك أن النزعات التبشيرية والاستشراقية تريد أن تلبس هذه الجاهلية لبوسا حسنا ، مضخمة ما كان لها من حسنات ، متغاضية عما عجت به من مثالب . وقد طرب لذلك القوميون ، وخصوصا من العرب ، فحرصوا على عرض الجاهلية العربية مبرأة من كل عيب ، وإذا عرضوا الشىء من عيوبها مسوه برفق : كما يبدو ذلك فى دراسة التاريخ والأدب وما سمى « المجتمع العربى » وغير ذلك

متجاهلين ما كانوا علّيه من فساد العقائد والأخلاق والأنظمة والتقاليد . وصدق الله حين قال : « هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم 'وا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[٩] .

ورضى الله عن عمر الذى قال : « إنما تنقض عرا الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية » . وذلك لأنه لا يعرف مقدار ما قدمه الإسلام من هداية وإصلاح . وهذا بشرط ألا يمس ذلك ما تميزت به أمة العرب ، ولغة العرب ، وأرض العرب من خصائص رشحتها لاحتضان الرسالة العامة الخالدة . « الله أعلم حيث يجعل رسالته »[١٠] .

٢ - ينبغى الاهتمام بحركات الإصلاح والتجديد فى تاريخ الإسلام ، وبرجال التجديد الذين يبعثهم الله بين حين وآخر فى هذه الأمة ليجددوا لها دينها ، أياً كان لون هؤلاء الرجال واتجاههم ، فقد يكون منهم الخلفاء كعمر بن عبد العزيز ، أو السلاطين والأمراء كنور الدين وصلاح الدين أو الفقهاء والدعاة كالشافعى والغزالى وابن تيمية وابن عبد الوهاب ، وقد يكون المجدد فرداً ، وقد يكون جماعة أو مدرسة اصلاحية يبرز بها اتجاه فى الإصلاح له سماته وخصائصه .

٣ - كما يجب الالتفات إلى دور الإسلام ورجاله وأثره فى حركات المقاومة والتحرير التى ظهرت فى العالم الإسلامى - على تباعد أطرافه - منذ وطئته جيوش الاستعمار . فرغم المكر الصليبى ، ومحاولات التحذير والتضليل ، وذر الرماد فى عيون المسلمين ، لم يسلم الاستعمار من المقاومة الباسلة فى كل بلد دخله وأريقت الدماء ، وسقط الشهداء تلو الشهداء ، ولم تزل المقاومة على مر الزمن حتى كان التحرير . وكان الإسلام وعلماؤه ودعاته ، وراء هذا الجهاد للاستعمار ، بريطانياً كان أو فرنسياً أو إيطالياً أو اسبانياً أو غير ذلك . وقد شهد بذلك مؤرخون غربيون مثل برنارد لويس[١١] وغيره .

***

---

(٩) الجمعـة : ٢ .
(١٠) الانعـام : ١٢٤ .
(١١) فى كتابه الغرب والشرق الأوسط (ترجمة) د . نبيل صبحى .

● **تحذيرات للدعاة فى المجال التاريخى :**

وأضيف إلى التنبيهات السابقة للدعاة فى مجال الثقافة التاريخية ـ تحذيرات يجب على الداعية ألا يغفل عنها :

أولا ـ ليس كل ما تحويه كتب التاريخ صحيحاً مائة فى المائة ، فكم حوت مراجع التاريخ مس مبالغات وتشويهات وتحريفات تكذبها الحقائق الثابتة بالاستقراء أو بالموازنة بالأدلة الناصعة فى مصادر أخرى . وكم لعبت الأهواء والعصبيات السياسية والدينية والمذهبية دورها فى كتابة التاريخ ، وفى رواية وقائعه وتلوين أحداثه ، وتصوير أبطاله إيجاباً أو سلباً ، وخصوصاً إذا علمنا أن ـ التاريخ يكتبه ـ عادة المنتصرون الغالبون . ـ والغلبة لها بريق وأضواء كثيراً ما تعشى أعين المؤرخين عن سوءات الغالبين ، فى حين تضخم أخطاء المغلوبين ، وتطمس فضائلهم ، عن قصد أو غفلة .

وإذا نظرنا إلى تاريخنا الإسلامى الذى يتعلق بأمثل عصور الإسلام وأفضلها وهو تاريخ العصور الأولى التى انتشر فيها الإسلام فى الآفاق ، وانتشرت معه لغته وفقهه ، واتسع فيها تعلم كتابه وسنة نبيه ، وهو تاريخ عصر الصحابة ومن تبعهم بإحسان ، وهم الذين أثنى عليهم الله ورسوله ، وهم الذين حفظوا القرآن والحديث وبلغوهما إلى الأجيال اللاحقة من بعدهم ـ إذا نظرنا إلى هذا التاريخ وجدناه قد ظُلِم وشوِّه فى كتب التاريخ أى ظلم وتشويه . ثم يجىء المعاصرون ليأخذوا من تلك الكتب بعجرها وبجرها ، ويقولون : نحن لم نحد عن الطريقة العلمية فمصدرنا الواقدى أو الطبرى أو ابن الأثير . الخ . . جزء كذا صفحة كذا طبعة كذا .

هكذا يصنع المستشرقون ، وهكذا يفعل أساتذة التاريخ فى الجامعات وهكذا يسير الذين يكتبون عن التاريخ فى المجلات ، وفى غير المجلات .

ولم يكلف هؤلاء أنفسهم أن يدرسوا كيف كتب تاريخ تلك العصور .

لنأخذ أهم هذه المصادر القديمة وأشهرها وهو : تاريخ الطبرى .

لقد كانت الفكرة المهيمنة على الطبرى عند كتابة تاريخه هى التجميع والتسجيل ، دون الانتقاء أو التمحيص للأسانيد أو الوقائع المروية . فمن كان عنده خبر ذو بال نقله عنه ودوّنه منسوباً إليه ، وإن كان راوى الخبر من الضعفاء

أو المتهمين أو المتروكين ، وإنما دفعه إلى ذلك حب الاستقصاء ، والخوف من أن يفوته بإهماله شيء من العلم ولو من بعض النواحى . ويمثل العلامة السيد محب الدين الخطيب الطبرى ومن فى طبقته من العلماء فى إيرادهم الأخبار الضعيفة برجال النيابة فى عصرنا ، إذا أرادوا أن يبحثوا فى قضية فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها ، مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه ، اعتماداً منهم على أن كل شيء سيقدر بقدره »[١٢] . هذا عذر للطبرى وأمثاله فى روايته عن المجروحين . وله عذران آخران :

أولهما : أنه يروى الحوادث بسندها إلى من رواها ، ويرى أنه إذا ذكر السند فقد برىء من العهدة ، ووضعها على عاتق رواته . وقد قيل : من أسند فقد حمل ، أى حملك البحث فى سنده ، وكان هذا مقبولاً فى زمنه حيث يستطيع العلماء أن يعرفوا رجال السند ، ويحكموا لهم أو عليهم .

ومن هنا قال الطبرى فى مقدمة تاريخه :

« فما كان فى كتابى هذا مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً فى الصحة ، ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّى إلينا » .

وبهذا حمل رواته التبعة ، وحمل بالتالى دارس كتابه أن يفتش عنهم فى كتب الرجال ، ومصادر الجرح والتعديل ، وسيجد حينئذ عدداً منهم ساقطاً بالمرة ، وعدداً آخر مختلفاً فى توثيقه وتضعيفه ، وعدداً آخر من الثقات المقبولين .

فمن رجال الطبرى : محمد بن إسحاق صاحب السيرة ، قال فيه الإمام مالك وغيره ما قالوا ، ومن وثقه لا يقبل كل ما يرويه ، وكثيراً ما كان الرواة عنه أضعف منه وأوهن .

والواقدى كذبه جماعة من أئمة الحديث ، ومن قبله لم يقبله بإطلاق . .

وهشام بن محمد الكلبى وأبوه ، وهما متهمان بالكذب .

وسيف بن عمر التميمى كان يضع الحديث ، ويروى الموضوعات عن

---

(١٢) مجلة الأزهر . مجلد ٢٤ عدد صفر سنة ١٣٧٢ هـ مقالة « المراجع الأولى فى تاريخنا ». لمحب الدين الخطيب

الأثبات - اتهم بالزندقة ، وضعفه غير واحد .

وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى ، قال فيه الحافظ الذهبى : أخبارى تالف لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره وقال ابن معين : ليس بثقة ، وقال مرة : ليس بشىء . وقال ابن عدى : شيعى محترق ، صاحب أخبارهم !

وغير هؤلاء كثيرون من المجروحين المتروكين عند أئمة الجرح والتعديل من علماء الحديث ، وإن كان رجال التاريخ والأخبار يروون عنهم ، ويستندون إليهم .

ومن أجل هذا لا يقيم المحققون وزناً لروايات « الأخباريين » ولا يعتمدون عليها ويعيبون من ينقل عنها فى كتب العلم المعتبرة .

ولهذا نجد الإمام النووى يقول فى كتاب « الاستيعاب » لفقيه المغرب ومحدثه الإمام ابن عبد البر النمرى : إنه من أحسن الكتب المؤلفة فى الصحابة وأكثرها فوائد ، لولا ما شانه بذكر ما شجر بين الصحابة وحكايته عن الأخباريين .
قال السيوطى معقباً : والغالب عليهم الإكثار والتخليط فيما يروونه [١٣] .

والعذر الثانى : للطبرى فى عدم تمحيص ما رواه فى تاريخه : أن الموضوع لا يترتب عليه حكم شرعى من تحليل أو تحريم أو إيجاب أو غير ذلك ، مما يتعلق به علم الفقه . كما أنه لا يتصل ببيان كلام الله أو كلام رسوله ، كما فى علم التفسير ، أو علم الحديث . ولا غرو أن وجدنا الطبرى - الذى كان إماماً جليل القدر فى التفسير والحديث والفقه حتى كان له مذهب متبوع مدة من الزمن - يدقق ويحقق فيما يتصل بهذه العلوم المذكورة ، ولكنه يترخص ويتساهل فى أمر التاريخ ، قائلاً فى تسويغ ذلك « إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج . . » .

وغفر الله للإمام الطبرى ، فإن هذا التساهل قد شوّه تاريخ فجر الإسلام ، وأساء إلى حملة رسالة الأولين ، وفتح باب الاعتذار نفسه لمن بعده ، فأخذوا عنه كما أخذ عمن قبله ، وأدوا إلى من بعدهم ، كما أدى هو إليهم وكما أدى اليه من قبله . ومن ثم نرى أن ابن الأثير وأبا الفداء وابن كثير وغيرهم ، يعتمدون على الطبرى ، ثم جاء المعاصرون والمستشرقون فاعتمدوا على هؤلاء ، واعتبروا ذلك علماً وتحقيقاً .

---

(١٣) انظر التدريب على التقريب جـ ٢ ص ٢٠٧ .

ولا غرو أن قام فقيه كبير ، وإمام جليل ، هو القاضى أبو بكر بن العربى (ت ٥٤٣) بالدفاع عن الصحابة ، وتحقيق مواقفهم بعد وفاة الرسول ، تحقيقاً علمياً موضوعياً ، وذلك فى كتابه القيم : « العواصم من القواصم » الذى أخرج الجزء الخاص منه بالصحابة وحققه وعلق عليه بإفاضة : العلامة السيد محب الدين الخطيب ، رحمه الله وجزاهما عن الإسلام خيراً .

ثانياً : كما يتعرض التاريخ للتحريف والتشويه فى تدوينه ، يتعرض لهما أيضاً فى تفسيره .

وفى عصرنا هذا نجد الأهواء والعصبيات والتيارات الفكرية تعمل عملها فى تفسير التاريخ وتوجيه وقائعه ـ وقد انعكس هذا على التاريخ الإسلامى أيضاً .

فالمستشرقون ـ فى الغالب ـ حين يبحثون فى التاريخ ، يخدمون به فكرة بيتوها عن محمد ﷺ ودينه ، فمحمد ليس برسول الله ، والإسلام ليس بدين الله ، وأصحابه ليسوا إلا ثلة من المغامرين المتنافسين على الدنيا !

واذا كان هذا رأيهم فى الصحابة فكيف من بعدهم ؟ .

لا دين عندهم الا اليهودية والمسيحية أما الإسلام فهو فى زعمهم نسخة محرفة منهما ، ولا عبقرية عندهم إلا للغربيين ، ولا حضارة كحضارة اليونان والرومان . والمسلمون لا يزيدون على أن يكونوا نقلة لهما .. الخ .

وفى سبيل هذا يغفلون أحداثاً قيمة ، ويضخمون أحداثاً تافهة ، ويردون أخباراً صحيحة ، ويعتمدون أخباراً ضعيفة أو مكذوبة ، يتصيدونها من أى كتاب ولو كان « الأغانى » للأصفهانى . .

ويوجهون هذا كله توجيهاً مسموماً يؤيد اعتقادهم السابق عن الإسلام وكتابه ورسوله وأمته .

والماركسيون يفسرون التاريخ ـ وفقاً لفلسفتهم المعروفة ـ تفسيراً مادياً طبقياً ، ويحاولون أن يطبقوا ذلك على نشأة الإسلام وظهوره وانتشاره ، ويعتسفون فى ذلك كل الاعتساف ، ويحملون الأحداث ما لا تحتمل بحال ، ويقسمون الصحابة إلى يمين ويسار ، ويديرون صراعاً موهوماً بينهما .. وهكذا . وكثير من كتاب المسلمين أنفسهم ، يخلعون على حوادث التاريخ ، ومواقف رجاله ، ما عرفوه وخبروه من ألاعيب السياسة ، ومواقف رجالها فى هذا

ويتخيلون العلاقة بين عمر وخالد ، أو بين عثمان وعلى ، أو بين على وطلحة والزبير ، من أمثال العلاقة بين الطامحين والطامعين من رجالات الأحزاب ، وتجار السياسة فى عصرنا ، ويفسرون المواقف والأحداث تبعاً لهذا التصور الظالم ، المتجنى على هذا الجيل المثالى الذى لم تكتحل عين الدنيا برؤية مثله .

والقوميون من العرب يوجهون التاريخ الإسلامى كله وجهة قومية ، فالإسلام فى نظرهم انتفاضة عربية أو وثبة من وثبات العبقرية العربية ! ورسول الإسلام ذاته بطل قومى جادت به أمة العرب على الإنسانية ! ولا نعجب بعد ذلك إذا غدا « أبطال الإسلام » وعلماؤه ورجالاته الكبار على مدار تاريخه « أبطالاً عرباً » ولا أن تسمى الحضارة الإسلامية « حضارة عربية » مع أنها بلا ريب إسلامية بحكم أهدافها وقيمها المستمدة من الإسلام . . إسلامية بحكم بواعثها ودوافعها المرتبطة بخدمة الإسلام . . إسلامية بحكم العناصر التى أسهمت فى بنائها وتشييد أركانها ، وهى عناصر تشمل كل الأجناس والشعوب الإسلامية . إسلامية بحكم الرقعة التى امتد اليها وأثرت فيها ، وهى رقعة واسعة تشمل العالم الإسلامى كله .

على أن للعرب فضلاً لا ينكر ، فهم عصبة الإسلام الأولى ، وحملة رسالته الأولون ، ومبلغو القرآن والسنة إلى العالمين . وفيهم بُعِثَ الرسول الخاتم ، وبلسانهم نزل الكتاب الخالد ، وفى أرضهم حرم الله وحرم رسوله . ولكن هذا شىء ، وتحريف التاريخ شىء آخر .

* * *

الثقافة الأدبية واللغوية

واذا كانت الثقافة الدينية لازمة للداعية في الدرجة الأولى ، فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك . ولكن الأولى تلزمه لزوم المقاصد والغايات ، والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات .

واللغة ـ بمفرداتها ونحوها وصرفها ـ لازمة لسلامة اللسان ، وصحة الأداء ، فضلاً عن حسن أثرها في السامع . بل صحة الفهم أيضاً ، فالأخطاء اللغوية إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد ـ يمجها الطبع ، وينفر منها السمع .

وانظر كم يقشعر جلدك ، ويضطرب قلبك ، ويتأذى سمعك ، حين تسمع داعية يقول : التُبْعة وهو يريد : التَبِعة . ويذكر الأُهُبّة وهو يريد الأُهْبَة .

وآخر ينصب المرفوع ، ويرفع المنصوب ، ولا يفرق بين فاعل ومفعول به ، ولا يبالي بإضافة ولا حرف جر . . فلا يكاد ينهي سطراً من الكلام إلا ضلَّك فيه ضلّة ، أو لطمك ـ ولطم الخليل وسيبويه معك ـ لطمة أي لطمة .

وكثيراً ما يؤدي اللحن إلى إفساد المعنى ، وإخراجه إلى ما يناقض الشرع والعقل .

وشر ما يكون ذلك إذا كان اللحن في كتاب الله ، كذلك الإمام الذي صلى أعرابي خلفه ، فسمعه يقرأ : « ولا تَنكِحوا المشركين حتى يؤمنوا » قال : ولا إن آمنوا أيضاً لن ننكحهم ! فقيل له : إنه يلحن ، وليس هكذا يُقرأ . فقال : أخِّرُوه قبحه الله لا تجعلوه إماماً . فإنه يحل ما حرم الله .

إن المرء لا يستطيع أن يفهم كتاب الله وسنة رسوله بغير التمكن من اللغة وعلومها .

لقد أخبرني بعض طلابي أنهم سمعوا من يقول بأن حواء خلقت أولاً وأن آدم خلق منها بعد . وأن المرأة هي أصل البشرية .

ولما سألت من أين جاء بهذا الكلام ؟ قالوا : من القرآن من أول سورة النساء وما شابهها ـ وهنا أدركت سر الخطأ عند هذا المتحدث وهو جهله باللغة فقد قرأ قوله

تعالى من فاتحة سورة النساء « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها . . . »[1] ففهم منها أن كلمة « زوجها » تعني الرجل وهو آدم في نظره ، ولو كان آدم هو المخلوق أولاً والمرأة هي التي خلقت منه لقال : خلق منها زوجتها . . وهذا هو المستعمل عرفا تقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوجة ـ وغفل هذا الرجل أن القرآن يجب أن تفسر كلماته وفقاً لمدلولها اللغوي لا العرفي ، لأن العرف دائم التبدل . واللغة التي نزل بها القرآن تسمى المرأة زوجاً كالرجل تماماً . ولهذا قال تعالى في قصة آدم « اسكن أنت وزوجك الجنة »[2] . . ولم يقل وزوجتك . وقال في شأن هاروت وماروت « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه »[3] وإنما أتى الرجل من جهله باللغة .

والأدب بشعره ـ ونثره ، وأمثاله وحكمه ، ووصاياه وخطبه ـ مهم للداعية ، يثقف به لسانه ، ويجوِّد أسلوبه ، ويرهف حسه ، ويقفه على أبواب مّن العبارات الرائقة ، والأساليب الفائقة ، والصور المعبرة ، والأمثال السائرة ، والحكم البالغة . ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الداعية في محلها ، فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه .

وقد جاء في الحديث : « إن من البيان سحْراً ، وإن من الشعر حِكَماً »[4] وسمع النبي ﷺ ـ الشعر من أكثر من شاعر ، واستجاده واستزاد منه . وكان من أصحابه شعراء معروفون مثل : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة من الأنصار .

وأذن لحسان أن يذود بلسانه وشعره ، ويرد عنه هجو شعراء قريش ، وقال له : اهجهم وروح القدس معك .

وروى مؤرخو الأدب كثيراً من الشعر للخلفاء الراشدين ، وخصوصاً لعلي رضي الله عنه . فقد روى عنه كثير من الشعر الجيد البليغ ، كما رووا أيضاً لكثير غيرهم .

ومن لم يقل الشعر منهم فقد رواه ورَغَّبَ في روايته .

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : علموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل ورووهم ما يجمل من الشعر .

---

(١) النساء : ١ (٢) البقرة ٣٥ ، الأعراف ١٩ .

(٣) البقرة : ١٠٢ . (٤) رواه أحمد وأبو داوود عن ابن عباس باسناد صحيح .

وقالت عائشة رضي الله عنها : رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

وقال المقداد بن الأسود : ما كنت أعلم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بشعر ولا فريضة ـ علم المواريث ـ من عائشة رضي الله عنها .

وروى عنها ابن أبي مليكة : أنها كانت تنشد قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم … وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وتقول : رحم الله لبيداً . . فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟! .

ثم قالت : إني لأروي ألف بيت له ، وإنه أقل ما أروى لغيره .

وكان ابن عباس من أروى الناس للشعر ، حتى حكوا أنه كان يحفظ رائية عمر بن أبي ربيعة ، وكان يستند إلى الشعر في تفسيره للقرآن ، كما يعرف ذلك من محاورته لنافع ابن الأزرق .

وقال الشعبي أحد أئمة التابعين بالكوفة : ما أنا لشيء من العلم أقل مني رواية للشعر ، ولو شئت أن أنشد شعراً شهراً ، لا أعيد بيتاً . . لفعلت ! .

ويروى أن زياداً بعث بولده إلى معاوية ، فكاشفه عن فنون من العلم ، فوجده عالماً بكل ما سأل عنه ، ثم استنشده الشعر ، فقال : لم أرو منه شيئاً . فكتب معاوية إلى زياد : ما منعك أن تروِّيه الشعر ؟! فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل .

وهذا يدلنا على مقدار ما للأدب عامة ، وللشعر خاصة ، من تأثير في النفس البشرية ، كما يدلنا على أن العناية بالأدب ، والتضلع منه ، والاطلاع على مصادره والحرص على تقييد أوابده ، وترديد فرائده ، والاستفادة منها عند الحاجة ، أمر لازم للداعية الناجح .

ولا غرو أن جعل الله الآية الكبرى ، والمعجزة العظمى ، لخاتم رسله آية أدبية ، ومعجزة بيانية ، أثَّرت في خصومها وأنصارها على سواء : القرآن الكريم ، وذلك لينبهنا على قيمة الأدب ومنزلة البيان .

ولنضرب لذلك مثلاً : هب أنك تتحدث عن صلة الرحم ، وبر ذوي القربى وذكرت ما تيسر في الموضوع من الكتاب والسنة ، أفلا يكون مما يوسع أفق حديثك ويزيده تأثيراً على تأثير ، أن تذكر بعض ما حفلت به كتب الأدب في ذلك من شعر ونثر . . . فمن ذلك قول علي :

أكرم غشيرتك ، فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير . . الخ

ومن ذلك قول طرفة في معلقته :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وقول الآخر :

أخاك أخاك ، إن من لا أخاً له .

كساع إلى الهيجاء بغير سلاح .

وان ابن عم المرء ـ فاعلم جناحه .

وهل ينهض البازي بغير جناح ؟

وقول الحماس :

وإن الذى بيني وبين بنى أبي

وبين بني عمي لمختلف جدا

إذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم

وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي

زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهمو

وليس كبير القوم من يحمل الحقدا

وقول الأخر :

قومي همو قتلوا أميم أخي

فإذا رميت يصيبني سهمي !

فلئن عفوت لأعفون جللا

ولئن رميت لأوهنن عظمي !

ومن الجوانب المهمة في الثقافة الأدبية : ما تحكيه كتب الأدب من حوار وقصص وأخبار ، كثيراً ما تكون لها قيمة أخلاقية ، أو دلالة تربوية ، فيلتقطها الداعية ذو الحس المرهف ، لينقلها من مجال المتعة بالقراءة إلى مجال الدعوة والتوجيه .

أذكر هنا مثالاً لذلك ما حكاه ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه : « العقد

الفريد » : أن رجلاً يقال له : ابن سلكة ، دخل على الحجاج يشكو إليه ظلمة حلت به على أيدي رجاله . فكان مما قاله للحجاج :

عصى عاص من عرض العشيرة ، فحلق على اسمي[5] . وهدم منزلي ، وحرمت عطائي !

يعني الرجل أن هذا كله أصابه بذنب واحد من العشيرة ! . كما يفعل الطغاة إلى يومنا هذا .

قال الحجاج : هيهات،أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وقد
تعدى الصحاحَ مبارك الجُرْبِ

ولرب مأخوذ بذنب عشيرة
ونجا المقارفُ صاحبُ الذنب

فقال الرجل : أصلح الله الأمير . إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا . قال : وما ذاك ؟ قال : قال الله تعالى ـ أي على لسان إخوة يوسف ـ : « **قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا اذن لظالمون** »[6] . قال الحجاج : علي بيزيد بن أبي مسلم . . فمثل بين يديه ، فقال : افكك لهذا عن اسمه ، واصكك له بعطائه ، وابن له منزله ، ومر منادياً ينادي : صدق الله وكذب الشاعر !

فهذه القصة التي ترويها كتب الأدب تدل بوضوح على أن للشريعة الإسلامية سلطانها وهيبتها حتى على طغاة الحكام وهده خصيصه فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضعية . كما تدلنا على أن أطغى الطغاة في العصور الأولى لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله ، أو تحدى نصوصها ، ولو كان هو الحجاج بن يوسف .

حتى الطرائف والملح الأدبية يجد الداعية الموفق لها مكانها ووقتها ، فينتفع بها ، ليثبت بها معنى معيناً ، أو ليروح بها عن سامعيه . كما قيل : إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة .

---

(٥) يعنى أن اسمه وضع داخل حلقة أو دائرة من المداد كما يفعل أمام المواد التى يرسب فيها التلميذ . وبتعبير العصر . وضع اسمه فى القائمة السوداء .

(٦) يوسف : ٧٨ ، ٧٩ .

ويسطيع الداعة الملهم كذلك ، أن بقتبس كثيراً من النصوص الأدبية وبخاصة الشعر الرفيع - فينقلها من موضوعها الأصلي الذي سيقت فيه إلى موضوع يراه الداعية أليق لها ، وأحق بها ، وهو كثير .

قال بعصهم : حضرت مجلس الشبلي ، ففام إليه رجل من أصحابه ، فقال له : أوصني - فقال : لقد أوصاك الشاعر بقوله .

قالوا . توق ديار الحي ، إن لهم عيناً عليك إذا ما نمت لم تنم

وكثيراً ما استعار أهل المحبة لله أشعار العشاق ، من أمثال قيس وجميل وكثير فاستعملوها هم في أغراضها الربانية ، ولم يلتفتوا إلى أنها قيلت في ليلى أو بثينة أو عزة . بل ربما بقيت هده الأسماء ، فلم يبالوا بها .

وقد أنشأ أبو فراس الحمداني أبياتاً من قصيدة يخاطب بها أميره وابن عمه سيف الدولة ، فنقلها الصالحون إلى من لا يجوز أن يخاطب بها غيره ، وهو الله جل جلاله وهي قوله :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
إدا صح منك الود يا غاية المنى
فكل الذي فوق التراب تراب

ورأيت من الناس من ينسبها إلى رابعة العدوية ، والحقيقة أنها لم تُنشأ إلا بعد رابعة العدوية بزمن طويل .

* * *

الثقافــة الإنسانيــة

ونعني بها أن يلم الداعية إلماماً مناسباً بأصول ما يعرف الآن باسم « العلوم الإنسانية » مثل علوم : النفس والاجتماع والاقتصاد والفلسفة والأخلاق والتاريخ وقد فصلنا التاريخ عنها وخصصناه بالذكر لأهميته الخاصة للداعية ولا سيما أننا أدخلنا فيه التاريخ الإسلامي .

وإنما أوصينا الداعية بذلك لعدة أسباب :

١ ـ إن موضوعها له علاقة وثيقة بموضوع الدعوة ، أو قل : إن موضوعهما واحد وهو الإنسان . الإنسان في الماضي أو الحاضر ، الإنسان فرداً أو مجتمعاً ، الإنسان مفكراً لنفسه أو مقلداً لغيره ، الإنسان منتجاً أو مستهلكاً ، الإنسان ريفياً أو متحضرا ، الإنسان أمياً أو متعلماً ، الإنسان حيث كان وكيف يكون .

٢ ـ إن الإلمام بهذه العلوم يعين على فهم الناس ، وبخاصة الذين تثقفوا بهذه العلوم ، وأصبحت جزءاً من تكوينهم الفكري ، ومزاجهم الثقافي . والداعيه مأمور أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأن يبين لهم بلسانهم ليفهموا عنه . ولا يستطيع ذلك ما لم يكن بينه وبينهم جسر مشترك من الثقافة ، يقرب المسافه ، ويزيل الهوة أو الفجوة العقلية والنفسية بين عالم الدين والمثقفين بالعلوم الحديثة .

٣ ـ أن لهذه العلوم في كثير من الأحيان رشحات ضارة على الثقافة المعاصرة ، وسموماً تنفثها في شتى المجالات ، لا يكاد يسلم منها كتاب أو مجلة أو صحيفة ، أو إذاعة أو غيرها ، ومن لم يعرف مصادر هذه الرشحات والسموم لم يستطع أن يقاومها بأسلوب علمي رصين ـ بل لعلها تتسلل إلى نفسه وتؤثر في فكره وقلبه ولسانه وهو لا يشعر ، ولهذا قيل : عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه .

***

● **تنبيهات لدارس العلوم الإنسانية :**

وأود أن أنبه هنا ـ أي في مجال العلوم الإنسانية إلى جملة أشياء :

١ ـ أن هذا اللون من العلوم ـ مهما قيل فيه ـ يخضع لكثير من التفسيرات ، تبعاً للمدارس المختلفة ، وتبعاً لتفكير الدارس وثقافته واتجاهه .

٢ ـ أنها بناء على ذلك ـ تتسرب إليها إسرائيليات حديثة ، كما تسربت إلى كتبنا من قبل الإسرائيليات القديمة ـ إسرائيليات متل فرويد في علم النفس ، ودوركايم في علم الاجتماع ، وماركس في علم الاقتصاد .

٣ ـ أن للذاتية فيها مجالا رحباً ، للاستنتاج الظني ، وميداناً فسيحاً ، لأن موضوعها ليس المادة الحامدة بل الإنسان المتحرك المتغير ولذا تنقض اليوم ما أبرمته بالأمس ، وتنقض في العد ما تبرمه اليوم . وتهدم مدرسة منها ما تبنيه أخرى ، وينفي فيلسوف أو عالم ما يبالغ غيره في إثباته وتأكيده .

٤ ـ أن طريقة العرض والسياق للمادة العلمية ـ ولو كانت سليمة ولا غبار عليها تتأثر بعقيدة صاحبها وفكره وثقافته ، وتؤثر بالتالي في قارئها ، وهذا واقع في عرض العلوم البحتة ذاتها كالفيزياء والأحياء وغيرها . فالمادي يقول : خَلَقتْ الطبيعةُ ، والمؤمن يقول : خلقَ اللّهُ ـ هذا في العلوم التجريبية المحضة فكيف بالعلوم الإنسانية وهي كما ترى ؟ ! .

٥ ـ لهذا كله أقول : إن المهم ، بل من الضروري : أن تقدم هذه العلوم لطلاب الدعوة بأقلام إسلامية مأمونة لا يُختشى من تأثير الغزو الفكرى ، والإسرائيليات الحديثة على عقولها . ولهذا يشترط فيمن يقدم هذه الدراسات :

١ ـ أن يكون متخصصاً فيما يكتب ، غير دخيل على الموضوع ، ولا متقحم ما ليس له ـ وقد قال تعالى « ولا ينبئك مثل خبير » .

٢ ـ أن يكون مسلحاً بثقافة إسلامية ناضجة ، غير مبتسرة ولا سطحية ، حتى يتمكن من عرض موضوعه في ضوء منطلقات إسلامية صحيحة ، منبثقة من عقيدة الإسلام ونظرته إلى الدين والحياة ، وإلى الله والكون ، وإلى الإنسان والتاريخ .

٣ ـ أن يكون وراء هذه الثقافة ، وذاك التخصص ، روح إسلامية حية ، وضمير إسلامى يقظ ، وإن شئت قلت : التزام بالإسلام ، وإيمان بأنه أمثل فلسفة للحياة ، وأعدل نظام للمجتمع .

***

● علم النفس :

ولا أريد به علم النفس القديم الذي كان جزءاً من أجزاء الفلسفة ، ولا علم النفس الذي اشتهرت به مدرسة التحليل النفسي ، وما انبثق عنه من نظريات لم يقم دليل على صحتها .

إنما أريد علم النفس التجريبي الذي انتهت إليه الدراسات النفسية الحديثة ، والذي تقوم دراسة الظواهر النفسية فيه على أساس الملاحظة والتجربة والقياس والاختبار ، والذي يطبق على البشر لا على الورق ، ويعتمد على الرياضيات والأرقام لا على مجرد التأمل أو الافتراض .

إن علم النفس بهذا المفهوم يفيد الداعية في أكثر من جانب :

أولا ـ أنه يفيده في بيان الآثار الطيبة ، والثمار النافعة للإيمان والتدين في نفسية صاحبه وسلوكه في الحياة

تجد ذلك واضحاً في مثل ما سجله الطبيب النفسي الأمريكي المشهور ـ الدكتور « هنري لنك » في كتابه « العودة إلى الإيمان » وقد طبع كتابه إلى ما قبل سنوات ٤٧ مرة في أمريكا . ـ وقد أجرى أكثر من ثلاثة وسبعين ألف (٧٣٠٠٠) اختبار نفسي على عشرة آلاف نفس ، خرج منها بنتيجة هامة هي :

« أن كل من يعتنق ديناً ، أو يتردّد على دار العبادة ، يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له ، ولا يزاول أية عبادة ».

ومثل هذا ما قرره الدكتور « كارل يونج » في كتابه « الرجل العصري يبحث عن روح » : انه لم يجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر لا ترجع في أساسها إلى افتقاد الإيمان ، والخروج على تعاليم الدين ، ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة .

ويكفي هذا رداً على الذين يزعمون أن الدين أفيون مخدر للشخصية الإنسانية . ويقول الفيلسوف الأمريكي الشهير وليم جيمس « إن أعظم علاج للقلق ـ ولا شك ـ هو الإيمان » .

وينقل « ديل كارنيجي » عن الدكتور « أ . أ . بريل » قوله : « إن المرء المتدين حقاً لا يعاني مرضاً نفسياً قط » .

ويعقب على ذلك « كارنيجي » بقوله :

« وعندي أن أطباء النفس ليسوا إلا وعاظاً من نوع حديد ، فهم لا يحضوننا على الاستمساك بالدين ، توقياً لعذاب الجحيم في الدار الآخرة فحسب ، وإنما يوصوننا بالدين توقياً للجحيم المنصوب في هذه الدنيا : جحيم قرحات المعدة ، والانهيار العصبي ، والجنون »[1] الخ .

(١) انظر كتابنا « الإيمان والحياة » تحت عنوان « الطب النفسي في موكب الإيمان » من الفصل الأخير

ثانياً ـ أنه يفيد في فهم كثير من النصوص الدينية ـ والتعبير عنها تعبيراً يلائم عقلية العصر وروحه . فقوله تعالى : « **قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** »[٢] . يدلنا على أن التفكير النافع الجدير بأن يوصل صاحبه إلى الحق هو تفكير الإنسان مع رفيق له أو وحده ـ بعيداً عن تأثيرات العقل الجمعي وإيماءاته التي كثيراً ما تجرف الإنسان عن الصواب والاتزان ـ وهذا ما يقرره علم النفس .

وقوله ﷺ « لا يقضي القاضي وهو غضبان »[٣] يشير إلى تأثير الانفعال ـ وخصوصاً إذا اشتد ـ على سلامة الإدراك ـ وصحة التفكير وهو ما يقرره علم النفس .

ثالثاً ـ أنه يزيد الداعية فهماً لأسرار كثير من الأحكام الشرعية ـ فيزداد إيماناً بكمال عدل الله وحكمته فيما شرع ـ ويكون أقدر على بيان ذلك لغيره من الناس . من ذلك جعل قوامة الأسرة بيد الرجل لا المرأة ـ فلم يكن ذلك محاباة لجنس الرجال ولا حيفاً على جنس النساء ـ كيف والله خالق الذكر والأنثى جميعاً وهو ربهما جميعاً ؟ !

يقول الدكتور يوسف مراد : « كثير من البحوث التي استخدم فيها مقاييس التقدير الذاتي للشخصية ـ والتي طبقت على مجموعة من الذكور والإناث الكبار بينت أن هناك فروقاً بين الجنسين في النواحي الانفعالية ـ ومما يمثل هذه الدراسات بحث للتقدير الذاتي بمقاييس « برنوويتر » وكان من نتائج تطبيقه أنه تبين أن الرجال بالتأكيد أكثر ثباتاً من النساء وأنهم أقل تعرضاً لاضطراب الأعصاب وأكثر اعتماداً على أنفسهم وأقل انطواء وأكثر سيطرة وأكثر ثقة في أنفسهم من النساء »[٤] .

رابعاً ـ أنه يعين الداعية على فهم نفسية من يدعوه من الأفراد أو الجماعات ، ودراسة اهتماماتهم ، وما يؤثر في نفوسهم ، ليخاطبهم على قدر عقولهم ويعطيهم بقدر ما يقبلون ويطيقون ، دون أن ينفرهم أو يثقل عليهم ، أو يجلب لهم الملل والسآمة .

وهنا نذكر الوصية النبوية : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[٥] وكان عبدالله بن مسعود يذكر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبدالرحمن ، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ! قال : « أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكُم . وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتحولنا بها مخافة السآمة علينا »[٦] .

* * *

---

(٢) سبأ : ٤٦ .
(٣) رواه البخاري .
(٤) ميادين علم النفس ج ٢ : ص ٦٠٦ ، ٦٠٧
(٥) رواه الشيخان عن انس
(٦) رواه الشيخان والترمذي .

● علم الاجتماع :

وهو العلم الذي يعني بدراسة المجتمع البشري في مختلف جوانبه ، ويعمل على تحليل ظواهره والكشف عن القوانين التي تحكم مسيرته .

والغربيون ينسبون تأسيس هذا العلم إلى « أوجست كونت » الفيلسوف الفرنسي ، ويسمونه « أبا الاجتماع » جاهلين أو متجاهلين الوثبات الرائعة التي حققها العلامة عبدالرحمن بن خلدون في هذا العلم ، كما يلاحظ ذلك بوضوح من درس « مقدمته » الفذة في فلسفة التاريخ[7] .

ولهذا العلم مدارس عديدة ، وفيه اتجاهات متباينة ، ولكل منها مناهجه في البحث والتحليل ، من المنهج التاريخي ، إلى المنهج التطوري ، إلى المنهج المقارن ، إلى المنهج الوظيفي ، إلى المنهج الصوري أو النظري ، إلى ما جَدَّ ويجِّد من مناهج يعلمها الله وحده . حتى قال أحد النقاد يوماً عن علم الاجتماع : إنه علم ذو أكبر عدد من المناهج ، وأقل عدد من النتائج[8] .

ويحسن بالداعية أن يطلع على نبذة من أصول هذا العلم ، وأهم مقرراته وأحدث ما انتهى إليه رجاله .

فكثيراً ما يُتخذ بعض ما يحويه هذا العلم سلاحاً لضرب الدين ، وتعويق دعوته من مثل ما سماه « كونت » قانون الدورة الثلاثية « الذي يقضي بأن دور الدين قد انتهى ، كما انتهى دور الميتافيزيقا الفلسفية ، ولم يبق إلا دور العلم التجريبي »[9] . وما قرره هو وغيره من اعتبار الدين ظاهرة اجتماعية وتفسير كل دعوات الأنبياء ، على أنها من صنع البشر . وكذلك ما قرره « دوركايم » وغيره من تطور الأديان من الوثنية إلى التوحيد خلافاً لما يقرره القرآن والسنة .

ومثل ما قرره دوركايم من أن الفرد دمية يحرك خيوطها المجتمع ، مما يتنافى مع المسئولية الفردية التي يؤكدها الدين ، ويقيم عليها بناء التكليف وفكرة الثواب والعقاب .

---

(٧) انظر : تقديم الدكتور على عبد الواحد وافى لمقدمة ابن خلدون بتحقيق . ط دار البيان .

(٨) انظر : تمهيد فى علم الاجتماع للأستاذ ذنو تومور- ترجمة د . محمد الجوهرى وآخرين .

(٩) انظر إلى علم هذه النظرية فى كتاب الدين للدكتور دراز ص ٨٤ وما بعدها ، ط دار القلم . الكويت أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ ط ثالثة

ومن المهم بل من الضرورى ، أن تعرض أسس هذا العلم من منظور إسلامى ، ومن منطلقات فكرية تنسجم مع عقيدة الإسلام ونظرته إلى الدين والحياة والإنسان والتاريخ(١٠) . حتى يتخذ وسيلة لفهم أوضاع المجتمع ، ودراسة مشكلاته دراسة علمية ومعرفة أسبابها . ومحاولة علاجها علاجاً جذرياً لا مسكناً .

* * *

● **الفلسفة :**

ويحسن بالداعية أن يلم ـ أيضا ـ بالفلسفة واتجاهاتها المادية والروحية والوضعية والمثالية ، وبتاريخ الفكر الإنساني عامة والإسلامى خاصة . لا ليعتنق آراء الفلاسفة أو يتبنى وجهة نظرهم في الإلٰهيات أو الأخلاقيات أو الاجتماعيات ، ولكن ليفيد من وراء دراستها في نواحي أخرى منها :

(أ) أن يتمكن من فهم الأفكار والفلسفات التي غزت كثيراً من عقول أبناء المسلمين اليوم ، وأصبح لها دعاة ومروجون في قلب ديار الإسلام ، من أساتذة الجامعات ورجال الأدب والثقافة والإعلام ، فهذا تطوري ، وآخر وضعي ، وثالث ماركسي ، ورابع وجودي ، إلى غير ذلك من المدارس ، الغربية أو الشرقية ، الواقعية أو المثالية ، اليمينية أو اليسارية . تختلف اتجاهاتها وتتفق على رفض الإسلام . وليس يقبل منا السكوت على هذه الأفكار والفلسفات ـ على طريقة النعامة المعروفة ـ وهي تغزونا في عقر دارنا ، وتأسر إليها أبناءنا ، كما أننا لا نستطيع مقاومتها فكرياً ، مالم نحسن فهمها وتصورها ، وقديماً قال أهل النظر : « الحكم على الشيء فرع عن تصوره » .

(ب) أن يتمكن من الرد على الفكر المخالف للإسلام بسلاح الفكر نفسه ، لأن الرد على المخالفين بالقرآن والحديث لا يصلح ، إذ هم لا يؤمنون بهما . وهذا ما فعله الإمام الغزالي في كتابه « تهافت الفلاسفة » وما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية في « درء تعارض العقل والنقل » أو « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » وفي « نقد المنطق » وغيره ، ولولا هضمهما للأفكار الفلسفية ما استطاعا نقضها من القواعد .

وهذا ما يجب أن يصنعه كل داعية للإسلام مع الأفكار الوافدة الهدامة .

---

(١٠) هناك عدة محاولات جادة لتحقيق هذا الهدف ، أذكر منها : « المدخل إلى المدرسة الإسلامية فى علم الاجتماع » للدكتور مصطفى محمد حسنين و « المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية » للأستاذ عمر عودة فى الخطيب ، و « الإسلام وبناء المجتمع » للدكتور أحمد العسال و « قضايا فى الاجتماع الإسلامى المعاصر » للدكتور محمد إبراهيم الفيرمى والمجتمع الإسلامى المعاصر للاستاذ محمد المبارك .

(جـ) أن يعرف ـ بدراسة تاريخ الفكر ـ الأصول والمنابع لكثير من التيارات الفلسفية والمذاهب الفكرية الحديثة كالمادية والشيوعية والوجودية وهذا يعين الباحث على تقويمها ونقدها نقداً علمياً مستوعباً ، كما يعرف الجذور التاريخية لكثير من التحريفات التي دخلت على الأديان الكتابية ذاتها كما يتضح ذلك من فكرة التثليث والصلب والفداء والبنوة لله . . . الخ ، وإلى ذلك يشير القرآن بقوله في أهل الكتاب « ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل »[١١] .

(د) أن يطلع على تخبطات الفكر الإنساني إذا بحث في الغيبيات وقضايا الوجود الكبرى وحده ، دون دليل أو معين من وحي الله وهداه ، وقد قال أحد الفلاسفة « كانت » في نتائج البحوث العقلية الميتافيزيقية إنها أشبه بورق نقد بغير ضمان .

وبذلك يزداد إيماناً بما هدى إليه وحي الله ، فيستريح عند ذلك ويريح « قل إن هدى الله هو الهدى »[١٢]

(هـ) أن ينتفع بما يجده من نتاج العقل وثمار الحكمة ، مؤيداً لما معه من حق خالص جاء به الوحي ، وفي الحديث : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذي وابن ماجة ـ ولا عجب أن يتفق العقل والنقل ، ويلتقي نور الفطرة السليمة بنور الوحي الصادق ، فيظهر من بينهما « نور على نور » بل الواجب أن يلتقي العقل الصريح والنقل الصحيح لا محالة ، لأن كليهما أثر من آثار رحمة الله بعباده وبره بهم ونعمته عليهم ، وآثاره تعالى لا تتناقض ، فان بدا لنا شيء من التناقض بين العقل والنقل ، فلابد أن يكون النقل غير صحيح أو العقل غير صريح ، وهذا ما وضحه وبرهن عليه شيخ الاسلام فى كتابه الآنف الذكر .

ومن المهم جداً أن يُكتَب عن أصول الفلسفة وتاريخها ، ومشكلاتها الكبرى ، وتياراتها المعاصرة ، بأقلام إسلامية متخصصة ، تتميز بالنضج والأصالة ، والإيمان العميق بما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق ، والتحرر من سيطرة أي فكر غاز دخيل[١٣] .

---

(١١) التوبة : ٣٠ (١٢) البقرة : ١٢٠ .

(١٣) من أفضل ما كتب فى ذلك : الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ـ الجانب الإلهى من التفكير الاسلامى ـ الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ـ تهافت الفكر المادى التاريخى ـ كلها للدكتور محمد البهى ـ قصة الايمان بين العلم والفلسفة للشيخ نديم الجسر ـ التفكير الفلسفى فى الاسلام ـ الاسلام والعقل للامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ، ومناهج البحث عند مفكرى الاسلام للدكتور على سامى النشار

● علم الأخلاق :

ومما يدخل في الفلسفة علم الأخلاق ، بنظرياته المختلفة ومدارسه المتعددة فهو جزء من الفلسفة ، وليس « علماً » كما زعم « ليفي برول » من فلاسفة المدرسة الاجتماعية الفرنسية . لأن العلم يبحث عن ما هو كائن ، وهذا يبحث عما يجب أن يكون ، وموضوعه إحدى القيم الرئيسية الثلاث التي تنشدها الفلسفة وهي : الحق والخير والجمال ، وتختص فلسفة الأخلاق بالبحث عن الخير كما هو معلوم .

ومن الكتب النافعة في هذا الباب :

الفلسفة الخلقية ـ للدكتور توفيق الطويل .

المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ـ ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود والأستاذ أبو بكر هلال ذكري .

مباحث في فلسفة الأخلاق ـ للدكتور محمد يوسف موسى .

كلمات في مبادىء علم الأخلاق ـ للدكتور عبد الله دراز .

تهذيب الأخلاق ـ لابن مسكويه .

وأما ما كتب عن فلسفة الأخلاق فى ضوء الإسلام ، فلا ريب أن أجمعها وأعمقها هو « دستور الأخلاق في القرآن » لشيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله .

* * *

● علم التربية :

ومن العلوم الإنسانية التي ينبغي للداعية أن يلم بها : علم التربية ، الذي أصبح له أثره وخطره في الحياة التعليمية بمختلف مراحلها ، وشتى ميادينها وأنواعها ، لا صبغها بصبغات مختلفة حسب فلسفة التربية ومنطلقها ووجهتها . وبخاصة في التربية مدارس واتجاهات تتباعد أحياناً من أقصي اليمين إلى أقصى اليسار ، من التفريط إلى الإفراط .

وشيء آخر يجعل للتربية أهمية خاصة بالنظر إلى الداعية ، ذلك أن الدعوة كالتربية ، كلتاهما تسعى إلى التتاثر في فكر الإنسان وانفعاله ونزوعه ، بغية الارتقاء بمفاهيمه وأخلاقه وسلوكه .

والداعية كالمربي في ذلك وإن كان لكل منهما وسائل ينفرد بها ، أو يتفوق فيها على صاحبه ، وكثيراً ما يكون الداعية مربياً ، والمربي داعية .

ومن ثم كان لا بد للداعية من الاستفادة بعلوم التربية وخبرات المربين ، وتجاربهم العديدة المتنوعة في مجالات تعليم الكبار والصغار ، والانتفاع بالأصيل الجيد من أصول التربية وطرائقها في حسن توجيه المخاطبين ، وإيصال المعرفة إليهم ، وكيف يمكن التأثير في عقولهم وعواطفهم ، وإثارة حوافز الخير في أنفسهم ، ومطاردة نوازع الشر بين جنوبهم . مع وجوب الاحتراز من النزغات الهدامة ، والشطحات المتطرفة في الفلسفات التربوية الحديثة والمعاصرة ، والاستنارة بما سطرته الأقلام الإسلامية في هذا المجال مثل :

١ ـ فلسفة التربية الإسلامية : للدكتور عمر التومي الشيباني
٢ ـ في أصول التربية الإسلامية : للدكتور عبد الغني عبود
٣ ـ من الأصول التربوية فى الإسلام : للدكتور عبدالفتاح جلال
٤ ـ منهج القرآن في التربية : للأستاذ محمد شديد
٥ ـ منهج التربية : للأستاذ محمد قطب
٦ ـ نحو التربية الإسلامية الحرة : للأستاذ أبي الحسن الندوي

* * *

الثقافـــة العلمية

ولسنا نعني بالعلم هنا : معناه عند أهل اللغة ، ولا مدلوله الاصطلاحي القديم عند أهل المنطق أو علماء الكلام وأشباههم ، ولا مفهومه الإسلامي كما جاء به القرآن والسنة . إنما نعني بكلمة « العلم » مفهومها الاصطلاحي الحديث ، كما شاع عند الغربيين ، ونقله إلينا الناقلون من أهل العربية ، حتى أصبح مصطلحاً شائعاً ولا مشاحة في الاصطلاح . ومدلول العلم عندهم هو : ما قام على الملاحظة والتجربة ، وخضع للقياس والاختبار ، مثل علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء ـ النبات والحيوان ـ والجيولوجيا والفلك والتشريح والطب وغيرها .

ولا نريد للداعية أن يتعمق في دراسة هذه العلوم ، فإن هذا غير مقدور عليه ، والعمر لا يتسع ، والطاقة لا تحتمل ، والمعارف لا تنتهي ، ولا تقف عند حد .

إنما نريد أن يطالع بعض الكتب الميسرة منها ، مما يعد لغير المتخصصين وكذلك المقالات العلمية في المجلات مما ينشر ليقرأه جمهور المثقفين والمفروض أنه واحد منهم ، وذلك بعد أن يكون قد درس الأصول المهمة من هذه العلوم في المرحلتين الإعدادية والثانوية ، دراسة تمكنه من متابعة الفكر العلمي ـ ولو بقدر ـ فيما بعد .

والثقافة العلمية مهمة في عصرنا للمثقفين عامة ، وللدعاة خاصة ، وذلك لأسباب :

١ ـ أنها مهمة لفهم الحياة المعاصرة . وقد أصبح العلم شريانها والمحرك لكثير من أمورها . فما من بيت إلا دخلته آثار العلم الحديث ، من كهرباء ، وأجهزة وأدوات . حتى المسجد نفسه نجد فيه ساعة جدارية ، ومكبرات للصوت ، وقد نجد فيه أجهزة للتسجيل ، وكلها من إنتاج العلم الحديث . ولا يجمل بالداعية أن يعيش في دنيا يسيرها العلم ويدير رحاها ، ولا يدرك الأوليات والأساسيات لهذا العلم .

٢ ـ أن بعض ما يعزى إلى العلم ـ وتحتويه كتبه ومقرراته ، يتخذ وسيلة للتشكيك في الدين ، مثل نظرية « النشوء والارتقاء » في الكائنات الحية ، التي تعرف بنظرية « التطور » لداروين وغيره . فلابد من معرفة شيء عن مثل هذه النظرية ، وقيمتها من الناحية العلمية ، حتى يمكن للداعية اتخاذ موقف محدد منها ، بناء على دراسة صحيحة لا

على خيالات أو إشاعات . والحكم للشيء أو عليه فرع عن تصوره .

٣ ـ أن من الحقائق العلمية ما يمكن الداعيةاستخدامه في تأييد الدين وتوضيح مفاهيمه ونصرة قضاياه ، والذب عنه ، بدفع شبهات خصومه ومفتريات أعدائه . وذلك يبدو في عدة صور ، منها :

(أ) تقريب بعض المعتقدات والحقائق الدينية من أفهام أهل العصر وتأييدها بمنطق العلم التجريبي نفسه ، حتى أن أولى قضايا الدين وكبراها ، وهي : إثبات وجود الله تعالى ، يستطيع هذا العلم أن يقوم فيها بدور بناء ، في مواجهة الماديين والملاحدة ، فيقيم الأدلة ويدحض الشبهات ، بوساطة فروعه العديدة من رياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء ، وأحياء ، وطب وغيرها . كما رأينا ذلك في مثل كتاب أركريسي موريسون « الإنسان لا يقوم وحده » المترجم الى العربية تحت عنوان « العلم يدعو الى الإيمان » وكتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » لثلاثين عالماً أمريكياً معاصراً ـ وكتاب « مع الله في السماء » للدكتور أحمد زكي .

ورأينا مفكري المسلمين ينتفعون بذلك في نصرة العقائد الدينية كما في كتاب « قصة الإيمان بين الدين والعلم والفلسفة » للشيخ نديم الجسر ـ وكتاب « الإسلام يتحدى » للمفكر الهندي وحيد الدين خان وقد جعل له مراجعه د . عبد الصبور شاهين عنواناً فرعياً هو « مدخل علمي للإيمان » .

لقد كان المشتغلون بالفلسفة والكلام قديماً يستبعدون ـ بل ينفون أن يرى الإنسان عمله في الآخرة بعد أن فرغ منه في الدنيا ، لأن الأعمال أعراض ، والعرض لا يبقى زمانين ، على هذا يؤولون مثل قوله تعالى « **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم** »[1] وقوله « **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء** »[2] . وما شابهها من آيات ، بأن المراد بالأعمال جزاؤها ، أي ليروا جزاء أعمالهم فجاء العلم الحديث يثبت أن أقوال الإنسان وأعماله كلها موجودة في الفضاء ، وأنها يمكن أن تسجل وتصور وتبقى . ولو بعد حدوثها بزمن طويل ، وإن لم يوفق الإنسان لاختراع آلة تقوم بهذه المهمة حتى الآن .

ولكن العلم لا ينفي إمكانها . ومعنى هذا أن كل إنسان يمكن أن يواجه بقوله وعمله طيلة حياته في صورة « فيلم » تسجيلي ناطق ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وبهذا يرى عمله حقيقة لا مجازاً

---

(١) الزلزلة : ٦ (٢) ال عمران ٣٠

(ب) ويستطيع العلم بمكتشفاته ومقرراته أن يؤيد كثيراً من الأحكام الشرعية ببيان ما اشتملت عليه من جلب المصالح للناس ، ودرء المفاسد عنهم ، وبذلك يزداد الذين آمنوا إيماناً ، ويضعف جانب المرتابين والمشككين في كمال الشريعة الإسلامية ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

يستطيع علم الطب أن يعطينا صورة واضحة لما تجنيه « أم الخبائث » الخمر على شاربيها ومدمنيها من أضرار جسيمة على الأفراد ، وعلى الأسر ، وعلى المجتمعات ، مادياً ومعنوياً ، وبهذا تتبين حكمة الإسلام في تحريم الخمر ، ولعن كل من شارك في صنعها أو الاتجار بها أو تقديمها من قريب أو بعيد .

ومثل ذلك المخدرات والتدخين وكل ما يعتاد الناس تناوله من مأكول أو مشروب أو مشموم أو غيره ، يضر متناوله عاجلاً أو آجلاً ، فضلاً عن الأضرار الأخلاقية والنفسية والاجتماعية الأخرى .

وكذلك ما يسببه انتشار الزنا من أمراض تناسلية وغيرها للرجال والنساء ، بالإضافة إلى آثاره السيئة على الأنساب والأخلاق والأسر والمجتمع كله . مما يؤكد معنى قوله تعالى « إنه كان فاحشة وساء سبيلاً »[٣] .

وتستطيع علوم الأحياء ، ووظائف الأعضاء والطب وغيرها ، أن تبين لنا حقيقة الفوارق الفطرية بين الذكر والأنثى - وبعبارة أخرى بين الرجل والمرأة - وأن هذا التفاوت لم يكن عبثاً ، وأن تجاهله في التشريع والتربية والتعليم والتوجيه ، لا يعقب إلا أسوأ النتائج ، وأن من الخير لكلا الجنسين ، وللجماعة كلها ، أن يكون لكل منهما عمله اللائق به ، وثقافته الملائمة لوظيفته في الحياة وبهذا يتلاقى منطق العلم مع منطق الدين الذى هو منطق الفطرة السليمة .

وحسبي هنا أن أنقل الكلمات التالية عن رجل يعد من أقطاب العلم التجريبي في عصرنا وهو الدكتور « ألكسيس كاريل » في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » يقول : « إن ما بين الرجل والمرأة من فروق ليست ناشئة عن اختلاف الأعضاء الجنسية ، وعن وجود الرحم والحمل ، أو عن اختلاف طريقة التربية . وإنما تنشأ عن سبب جد عميق ، وهو تأثر العضوية بكاملها بالمواد الكيماوية ومفرزات الغدد التناسلية . وإن جهل هذه الوقائع الأساسية هو الذى جعل رواد الحركة النسائية يأخذون بالرأي القائل بأن كلا الجنسين الذكور والإناث يمكن أن يتلقوا ثقافة واحدة ، وأن يمارسوا أعمالاً متماثلة . والحقيقة أن المرأة مختلفة اختلافاً عميقاً عن الرجل ، فكل حجيرة في جسمها

---

(٣) الاســـراء : ٣٢ .

تحمل طابع جنسها ، وكذلك الحال بالنسبة إلى أجهزتها العضوية ولا سيما الجهاز العصبى ـ وإن القوانين العضوية ـ الفيزيولوجية ـ كقوانين العالم الفلكى لا سبيل الى خرقها ، ومن المستحيل أن نستبدل بها الرغبات الإنسانية ، ونحن مضطرون لقبولها كما هي . فالنساء يجب أن ينمين استعداداتهن في اتجاه طبيعتهن الخاصة دون أن يحاولن تقليد الذكور ، فدورهن في تقدم المدنية أعلى من دور الرجال ، فلا ينبغي لهن أن يتخلين عنه » .

وقال أيضاً :

« يغفل الناس عادة شأن وظيفة الولادة بالنسبة الى المرأة مع أن هذه الوظيفة ضرورة لكمال نموها ، ولذلك كان من الحمق والسخف صرف المرأة عن الأمومة، فلا ينبغي أن يتلقى الفتيات والفتيان ثقافة واحدة ، ولا أن يكون لهم أسلوب واحد في الحياة ، ولا مثل أعلى واحد ، وعلى المربين أن يعتبروا الفروق الجسمية والعقلية بين الذكر والأنثى ، وما بين دوريهما الطبيعيين ، فبين الجنسين فروق لا يمكن أن تزول ، ومن الواجب اعتبارها في بناء العالم المتمدن » .

(جـ) وثمت مجال آخر يمكننا فيه استخدام حقائق العلم الحديث لتأييد حقائق الدين ، وذلك بتعميق مدلولات بعض النصوص ، وتوسيع نطاق مفهومها ، وزيادة توضيحه بما كشف عنه العلم من مقررات ، وما توصل إليه من نتائج .

فإذا قال القرآن عن النحل « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »[٤] يستطيع عالم الأحياء أو الكيمياء أو الطب أو الأغذية ونحوها أن يحدثنا بسعة عن عسل النحل وألوانه ، وما فيه من شفاء ، وفيم يكون وكيف يكون .

وإذا قال الله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر »[٥] أو « وخلق كل شيء فقدره تقديرا »[٦] أمكن للعلم هنا بشتى فروعه أن يفيض في بيان دقة التقدير في كل ما خلق الله في الكون ، فحجم الكرة الأرضية وبعدها عن الشمس بمسافة محددة ودورانها حول نفسها بسرعة معينة ، وبعد القمر عنها بمسافة محددة كذلك ، واشتمالها على كمية المياه في بحارها ومحيطاتها بهذا المقدار ، ووجود الغازات فيها بنسب ومقادير معلومة ، وغيرها وغيرها . . كل ذلك يدل على روعة التقدير الإلهي وعظمته وشموله لكل ما في الكون من مخلوقات ، وبهذا يعمّق العلم في عقولنا وقلوبنا معنى النص القرآني ـ فنزداد به هدى ويقيناً .

---

(٤) النحـل : ٦٩ (٥) القمـر : ٤٩ . (٦) الفرقـان . ٢

وإذا قال تعالى « والذى قدر فهدى »(٧) أو « الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »(٨) يستطيع العلم هنا كذلك أن يبين لنا سعة آفاق الهداية الإلٰهية المبثوثة فى الكون ، علويه وسفليه ، إنسانه وحيوانه ، ونباته وجماده ، كل شيء فيه هدى لغايته ، ويسر لما خلق له ، ومنح ما يساعده على ذلك من سنن الله وقوانين الكون . نجد ذلك في أضخم ما في الكون ، الى أصغر ما فيه ، من المجرة إلى الذرة .

(د) ومجال رابع يدخل فيه العلم ويصول ويجول ، وهو بيان سبق القرآن بكثير من الحقائق التي كشف عنها العلم الحديث ، وهو ما أشرنا إليه ونحن نتحدث عن « الإعجاز العلمي للقرآن » .

وقد عنى كثيرون في عصرنا بهذا الميدان ، إلى حد الإفراط والتجاوز في بعض الأحيان ، وجل هؤلاء من رجال العلم المتحمسين للدين ، كما رفضه آخرون بالكلية ، واستخدمه آخرون بتحفظ واعتدال ، وهذا ما أراه . وأعني بالاعتدال ، ألا نتعسف في التأويل ، ولا نخرج الألفاظ والتراكيب عن مدلولاتها اللغوية ، ولا نحمل النصوص على فروض ونظريات لم تصبح حقائق علمية .

وممن استخدموا العلم في هذا الجانب العلامة الشيخ رشيد رحمه الله في تفسير « المنار » وفي بعض كتبه كالوحي المحمدي حيث يتحدث فيه عن معجزات القرآن الفلكية والطبيعية ونحوها فيقول : « وأما إخبار القرآن عن عالم الغيب المادي من تكوين وتاريخ ، فمن معجزاته الإيجابية أنه جاء فيه كثير من التعبيرات التي كشف العلم والتاريخ في القرون الأخيرة من معانيها ما لم يخطر في بال أحد من أهل العصر الذي نزل فبه ، ومن معجزاته السلبية أنه لم يثبت على توالي القرون بعد نزوله شيء قطعي ينقض شيئاً من أخباره « القطعية » على أن أخباره هذه إنما جاءت لأجل الموعظة والعبرة والتهذيب ، ويكفي في مثل هذا أن تكون الأخبار على المألوف عن الناس ، ولا ينتقد عليها إذا لم تشرح الحقائق الفنية والوقائع التاريخية لأنها ليست مما يبعث الرسل لبيانه ، ومنها ما لا يمكن الوقوف عليه إلا بالتعمق في العلم أو الاستعانة بالآلات التي لم تكن معروفة عند المخاطبين الأولين بالوحي ، بل لا يصح أن يأتي فيها ما يجزمون بإنكاره بحسب حالتهم العلمية ، لئلا يكون فتنة لهم ، ولقد قال نبي الإنسانية العام : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » رواه مسلم في صحيحه .

ومن دقائق تعبير القرآن في النوع الأول ـ التكوين ـ التي اختلفت في فهمها الناس .. أن مادة الخلق « دخان » وهو عين ما يسمى السديم ، وأن السموات والأرض كانتا

---

(٧) الأعلى : ٣ (٨) طـه . ٥٠ .

رتقاً ، أي مادة واحدة متصلة ، ففتقهما الله وجعل كلا منهما خلقاً مستقلاً وبث فيهما أنواع الدواب ، ولم يكن أحد يعتقد أو يتصور أن في شيء من هذه الأجرام السماوية حيواناً ، وأنه جعل من الماء كل شيء حي ، وأنه خلق جميع الأحياء النباتية والحيوانية أزواجاً ، فجعل فى كل منهما ذكراً وأنثى وأنه جعل كل نبات موزوناً يعني أن عناصره متوازنة على نسب مقدرة ، وأنه أرسل الرياح لواقح ، وأنه « **يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل** »[9] والتكوير هو اللف على الجسم المستدير وهو صريح في كروية الأرض ودورانها اللذين كانا موضوع الجدال والنضال بين العلماء الى عهد قريب بعد الإسلام .

وأمثال هذا فيه كثيرة ، حتى أن بعض آياته في الشمس والقمر والنجوم وسبحها في أفلاكها وجريانها الى أجل مسمى ، وفي تناثر الكواكب عند خراب العالم لا تفهم فهما صحيحاً إلا في ضوء علم الفلك الحديث .

وأعجب منه اثباته أن للخلق سننا لا تتبدل وبيانه لكثير منها ، ومنها سنن الاجتماع التي لم يهتد البشر إليها بالبحث العلمي إلا بعد بيان القرآن لها بقرون . اهـ[10] .

إن الداعية الذي يحسن استخدام حقائق العلم في المجالات التي ذكرناها يجد طريقه الى أذهان الناس وعواطفهم سهلاً معبداً ، ويقع كلامه من نفس المثقفين العصريين موقع القبول وحسن التأثير ، ولعل هذا من أظهر الأسباب وراء نجاح بعض الدعاة المرموقين في عالمنا العربي اليوم .

* * *

---

(٩) الزمــر : ٥

(١٠) الوحى المحمدى ـ محمد رشيد رضا ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ ط المؤتمــر الاسلامى .

الثقافة الواقعية

ومن أهم ما يلزم الداعية التسلح به من ألوان الثقافة بعد ما تقدم : ما سميناه « الثقافة الواقعية » ونعني بها : الثقافة المستمدة من واقع الحياة الحاضرة ، وما يدور به الفلك في دنيا الناس الآن ، في داخل العالم الإسلامى وفي خارجه ، فلا يكفي الداعية أن يكون قد حصل العلوم الإسلامية وجال في مراجع الأدب واللغة والتاريخ ، وأخذ بحظه من العلوم الإنسانية ومن العلوم التجريبية ، ولكنه مع هذا كله لا يعرف عالمه الذي يعيش فيه ، وما يقوم عليه من نظم ، وما يسوده من مذاهب ، وما يحركه من عوامل ، وما يصطرع فيه من قوى ، وما يجري فيه من تيارات ، وما يعاني أهله من متاعب ، وبخاصة وطنه الإسلامي الكبير من المحيط الى المحيط ، بآلامه وآماله ، وأفراحه ومآسيه ، ومصادر قوته ، وعوامل ضعفه ، وبعد ذلك وطنه الصغير وبيئته المحلية وما يسودها من أوضاع وتقاليد ، وما تقاسيه من صراعات ومشكلات ، وما يشغل أهلها من قضايا وأفكار .

إن الداعية لا ينجح في دعوته ما لم يعرف من يدعوهم ، حتى يعرف كيف يدعوهم ، وماذا يقدم معهم وماذا يؤخر ! ولهذا حين بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل الى اليمن قال له : « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم » .

ومعنى هذا أنهم لو كانوا مجوساً أو ملاحدة أو نحو ذلك لكان عليه أن يدعوهم بطريقة أخرى .

ومن هنا يجب على الداعية في عصرنا أن يدرس :

١ ـ واقع العالم الاسلامي :

بمعرفة خلاصة مركزة عن أوضاعه الجغرافية والاقتصادية والسياسية وتوزيع سكانه وأسباب تخلفه وتفرقه ، وعوامل تقدمه ووحدته ، وإمكانات تكامله اقتصاديا وتضامنه

سياسياً وعسكريا ، فضلاً عن تقاربه اجتماعياً وثقافياً .

أضواء على فكرة « الجامعه الإسلامية » أو « الكتلة الإسلامية » أو « التضامن الاسلامي » باعتباره خطوة فى طريق « الخلافة الإسلامية »

مشكلات الأقليات والأكثريات الإسلامية المضطهدة : في الفلبين ، في قبرص ، فى ارتيريا ، في الحبشة ، في الاتحاد السوفييتي ، في أوربا الشرقية ، في ألبانيا ، في يوغوسلافيا ، في الصين ، في الهند .

٢ ـ واقع القوى العالمية المعادية للإسلام :

وتتمثل في المثلث الرهيب : اليهودية العالمية ، والصليبية العالمية ، والشيوعية الدولية ، وهي قد تختلف فيما بينها ، لكنها متفقة علينا .

لابد من دراسة الأسباب والدوافع وراء كيدها لنا : الحقد ، الطمع ، الخوف ، الاستعلاء . . . الخ . وسائلها في حربنا : الحرب السياسية، الحرب الاقتصادية ، الحرب الفكرية . . خطورة هذه الحرب الأخيرة وأساليبها وأجهزتها : التبشير ، مؤسساته وإمكاناته الهائلة الغارة النصرانية على العالم الإسلامى . الصراع بين الإسلام والتبشير في إفريقية . التخطيط لتنصير إندونسية أكبر بلد إسلامى ، محاولات التنصير في العالم العربي ، الفشل وتغيير الخطة . التعاون بين التبشير والاستعمار ، وكذلك بين التبشير والشيوعية أخيراً . الاستشراق : أهدافه ووسائله . إسهامه في إحياء التراث . . كتابات المستشرقين عن الإسلام ومدى علميتها ، المنصفون والمتحاملون من المستشرقين ، سموم الفكر الاستشراقى وآثارها في عالمنا العربي الإسلامى . تلاميذ المستشرقين .

الغزو الشيوعي : عن طريق الخبراء والمساعدات والمؤسسات الثقافية ، والبعثات التعليمية والتدريبية إلى البلاد الشيوعية ـ وتأييد الأحزاب الشيوعية في الداخل بالتمويل والتوجيه .

المؤسسات المشبوهة : الماسونية وما تفرع عنها : خطرها وأساليبها الماكرة ، وتغلغلها في الطبقات الأرستقراطية . . نوادي الروتاري .

الغزو من الداخل : عن طريق العملاء وعبيد الفكر الغربي ، والأحزاب الموالية من ليبرالية ويسارية ، احتضان الفرق المنشقة على الإسلام كالبهائية والقاديانية . . تأسد الحكام العلمانيين . . . الخ .

وينبغي هنا التنبيه على أمرين :

١ ـ عدم التهويل أو التهوين من شأن القوى المعادية ومخططاتها ، حتى لا يؤدي ذلك الى اليأس من مقاومتها أو الاستهانة بها .

٢ ـ الاستفادة من الصراع القائم بينها بذكاء ، واستغلال الفرص المناسبة لذلك ، كالصراع بين روسيا والصين ، وقد كان السلف يقولون : اللهم اشغل الظالمين بالظالمين ، وأخرجنا من بينهم سالمين .

٣ ـ واقع الأديان المعاصرة .

اليهودية : توارتها المحرفة ، وتلمودها الرهيب ، ونظرته إلى الأميين وانعكاس ذلك على الحركة الصهيونية وقيام إسرائيل .

المسيحية : طوائفها وكنائسها المختلفة ، وما بينها من صراع ، محاولات التقارب بين بعضها وبعض ، محاولات تقربها من اليهودية ، وثيقة الفاتيكان بتبرئة اليهود من دم المسيح . محاولات ما يسمى « التقارب الإسلامى المسيحي » وقيمتها .

أديان الشرق الأقصى الكبرى ، مثل :

الهندوكية الوثنية : عقائدها وطوائفها ، موقفها من المسلمين .

البوذية : ومدى انتشارها في بلاد الشرق الأقصى ، وأثرها في حياة أتباعها .

٤ ـ واقع المذاهب السياسية المعاصرة :

من شيوعية ورأسمالية واشتراكية وديمقراطية ودكتاتورية ، وتعدد مدارسها واختلاف تطبيقاتها .

نرى ذلك في النظرية الشيوعية الماركسيه ، ومدى اختلافها في تطبيق « لينين » وخلفائه في روسيا عن تطبيق « ماو » في الصين بل ما بين « ستالين » ومن بعده « خرشوف » إلى « بريجنيف » . عجز الشيوعية عن تحقيق فلسفتها الخيالية في مساواة الدخول ، وزوال الدولة .. الخ .

الشيوعية في احزاب أوروبا الغربية : تخلى بعض زعمائها عن بعض المفاهيم الأساسية للماركسية كنظرية الصراع الطبقى ، موقف الشيوعية من الأديان عامة والإسلام خاصة . موقفها من القيم الأخلاقية ، موقفها من الحريات .

الرأسمالية المعاصرة : ومدى مغايرتها للرأسمالية فى بداية نشأتها . الرأسمالية فى أمريكا وأوروبا واليابان . آثار الراسمالية الآن وموقفها من الدين الرأسمالة علمانية ـ

معنى قيام احزاب ديمقراطية مسيحيه في أوروبا .

الاشتراكية : وكثرة مدارسها واختلاف ما بينها ، من إصلاحية إلى علمية ، الجامع بين الاشتراكيات المختلفة ، فرق ما بين الاشتراكية والشيوعية . الاشتراكية والدين معنى قيام أحزاب اشتراكية مسيحية فى أوروبا .

الديمقراطية : معناها وأنواعها . ادعاء الشيوعيين والرأسماليين والاشتراكيين لها . ديمقراطية الصراع السياسى ، أو الاجتماع السياسى ، أو التحالف السياسي . أزمة الديمقراطية فى العالم .

الدكتاتورية : معناها ، وأنواعها . دكتاتورية الطبقة ، دكتاتورية الحزب ، دكتاتورية الزعيم ، التجربة الفاشية والنازية . الدكتاتورية في عالمنا اليوم .

موقف الإسلام من هذه المذاهب ـ الإسلام نسيج وحده . ما وافق الإسلام منها في شيء خالفه في أشياء . تميز الإسلام عنها في غاياته ووسائله ـ خطأ اضافة الإسلام إلى مذهب منها . . استغناء أمتنا بما عندها عن استيراد مذهب أجنبي عنها . . جناية الحلول المستوردة على أمتنا . حتمية الحل الإسلامى .

٥ ـ واقع الحركات الإسلامية المعاصرة :

الحركات الإقليمية ـ الحركات العالمية ـ الحركات الجزئية ـ الحركات الشاملة .

أهم هذه الحركات في العالم الإسلامى : حركة الجماعة الإسلامية في باكستان والهند ـ حزب ماشومي في إندونيسية ـ الحركة الإسلامية في تركية . . حزب التحرير في الأردن وفلسطين ـ الإخوان المسلمون في مصر والعالم العربي وهي كبرى الحركات الإسلامية الحديثة .

الدعوة الإسلامية في العالم الإسلامى : مؤسساتها ووسائلها : المساجد ورسالتها وما ينقصها ، وما يمكن أن تقوم به ـ مؤتمر رسالة المسجد ـ المجلات الاسلامية ودورها ـ الكتب الإسلامية .

الدعاة المرشدون : المؤتمر العالمي الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ـ توصياته ودراساته .

أهمية الجامعات والمعاهد الإسلامية ووظيفتها .

دور وزارات الأوقاف والشئون الإسلامية .

الدعوة الإسلامية في خارج العالم الإسلامي : في آسيا وإفريقية . . في أوروبا

وأمريكا . المراكز الإسلامية . . والجمعيات الإسلامية . . الاتحادات الطلابية . . المدارس الإسلامية . أهمية التنسيق والترابط بين هذه المؤسسات . . الحذر من مؤامرات القوى المعادية عليها . وجوب معاونتها من داخل العالم الإسلامى مادياً وأدبياً .

دور الأزهر الشريف ورابطة العالم الإسلامى وغيرها من المؤسسات فى نشر الدعوة ومعاونة دعاتها . . تحذير الحكومات من التدخل في توجيه هذه المؤسسات لخدمة السياسات المحلية .

٦ - واقع التيارات الفكرية المعارضة للإسلام :

ونعني بها التيارات الموجودة داخل العالم الإسلامي مثل :

التيار اليساري أو الماركسى ، وهو تيار مادي الفكرة ، موال للمعسكر الشيوعي .

التيار الليبرالي ، الموالي للمعسكز الغربي ، ويمثله كتّاب وصحف وأحزاب . وهو تيار علماني .

التيار القومي ، القومية العربية ، أو الطورانية أو الفارسية ونحوها ـ وهو تيار علماني أيضاً ينادي بفصل الدين عن الدولة .

٧ ـ واقع الفرق المنشقة على الإسلام :

وأبرزها وأخطرها : البهائية والقاديانية .

أما الأولى فهي دين جديد مخالف للإسلام كل المخالفة ، ولا يزعم دعاتها أنفسهم أنها من الإسلام ، وإن نشأت أول ما نشأت في أرض الإسلام .

وأما الثانية فهي فرقة مارقة تدعى نبوة جديدة بعد أن ختمها محمد ﷺ . وهذه تحاول جاهدة أن تلتصق بالإسلام وأمة الإسلام . وكلتاهما تحظى بمساندة القوى المعادية للإسلام .

٨ ـ واقع البيئة المحلية :

فكل داعية عليه أن يدرس البيئة التي يعيش فيها ويعرف أوضاعها ، وتقاليدها ، ويتعمق في فهم مشكلاتها ونفسيات أهلها وما يؤثر فيها ، كما عليه أن يعرف لغتهم ليكلمهم بلسانهم « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[11] .

(١١) إبراهيم : ٤ .

ولهذا نرى معرفة اللغات الحية ـ أو لغة منها على الأقل ـ ضرورة للداعية في عصرنا .

هذه معالم سريعة لما ينبغي أن تقوم عليه ثقافة الواقع ، ولا يخفى أن هذه الثقافة لا تستمد من الكتب وحدها ، فهي ثقافة نامية متجددة مستمرة ، يمكن الداعية أن يجدها في الصحف والمجلات والدوريات والنشرات الرسمية وغير الرسمية.

والداعية ذو العقل اليقظ ، والحس المرهف يستطيع أن يأخذ مدداً جديداً من كل ما حوله من وقائع الحياة اليومية ، من أخبار الصحف ووكالات الأنباء ، وتعليقات المعلقين ، ويمكنه أن يعد لذلك سجلاً أو أرشيفاً ، يدون فيه ما يهمه من هذه الوقائع والأخبار ، ويصنفها ويضعها عند الحاجة في مكانها ، فإن أحداث اليوم هي تاريخ الغد ، الذي يدرسه الدارسون ويحلله الناقدون .

على أن لهذه الأخبار والأحداث مزية على الأحداث والأخبار الماضية ، وهو جدتها وحضورها في الأذهان ، ولهذا يكون لها أبلغ الوقع والتأثير .

بل يستطيع الداعية أن يتلقى معلوماته عن الواقع من مصادره الحية المباشرة ، بلقاء الناس ومخالطتهم ومشاهدة أحوالهم ، والاستماع إلى أحاديثهم ، في الحضر والسفر ، فإن السفر نصف العلم ، ولهذا كان علماؤنا الأولون أكثر الناس ترحالاً في طلب العلم من أهله في مواطنهم . وقد قال الشاعر العربي :

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما
قد حدثوك ، فما راء كمن سمعا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

* * *